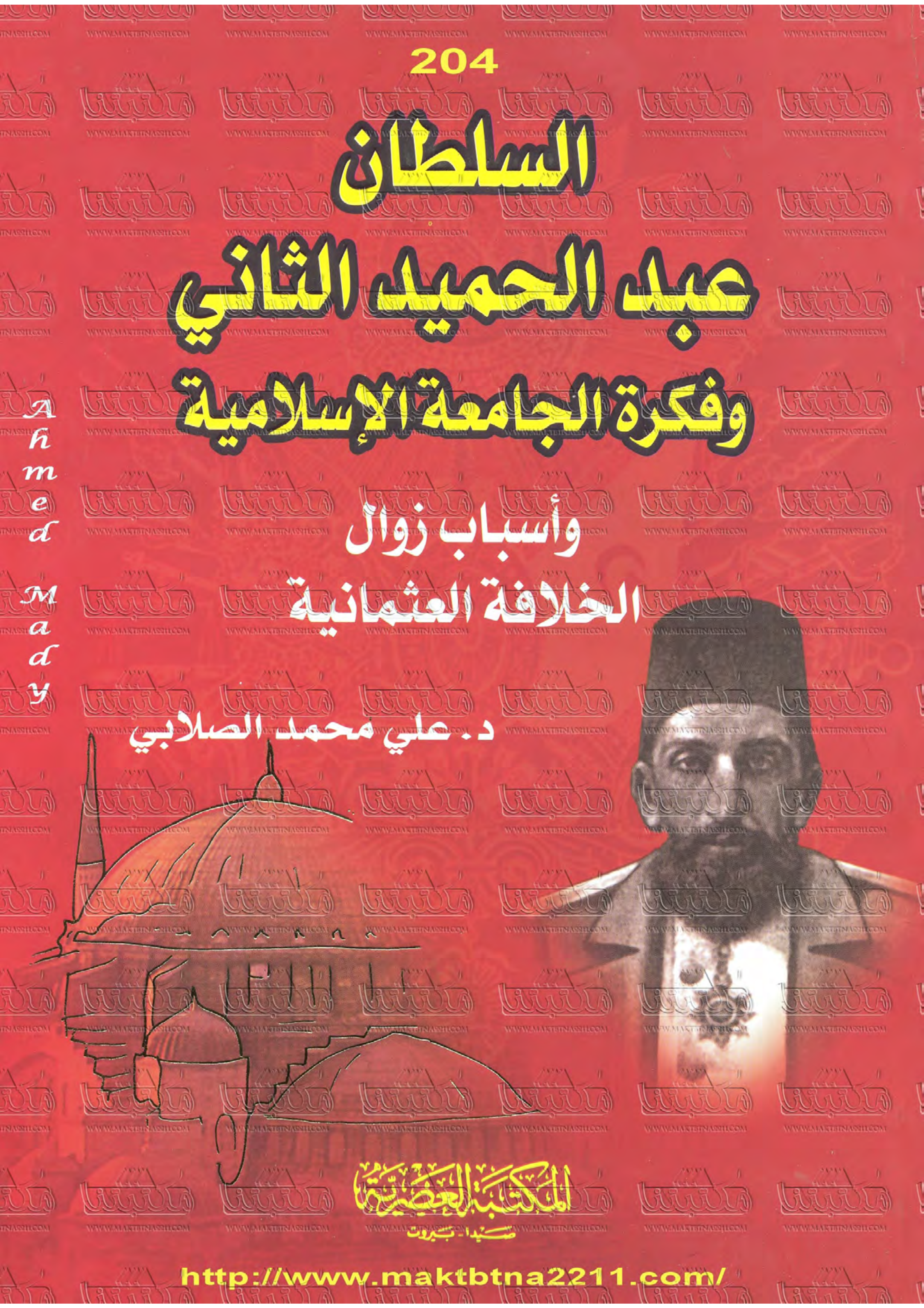
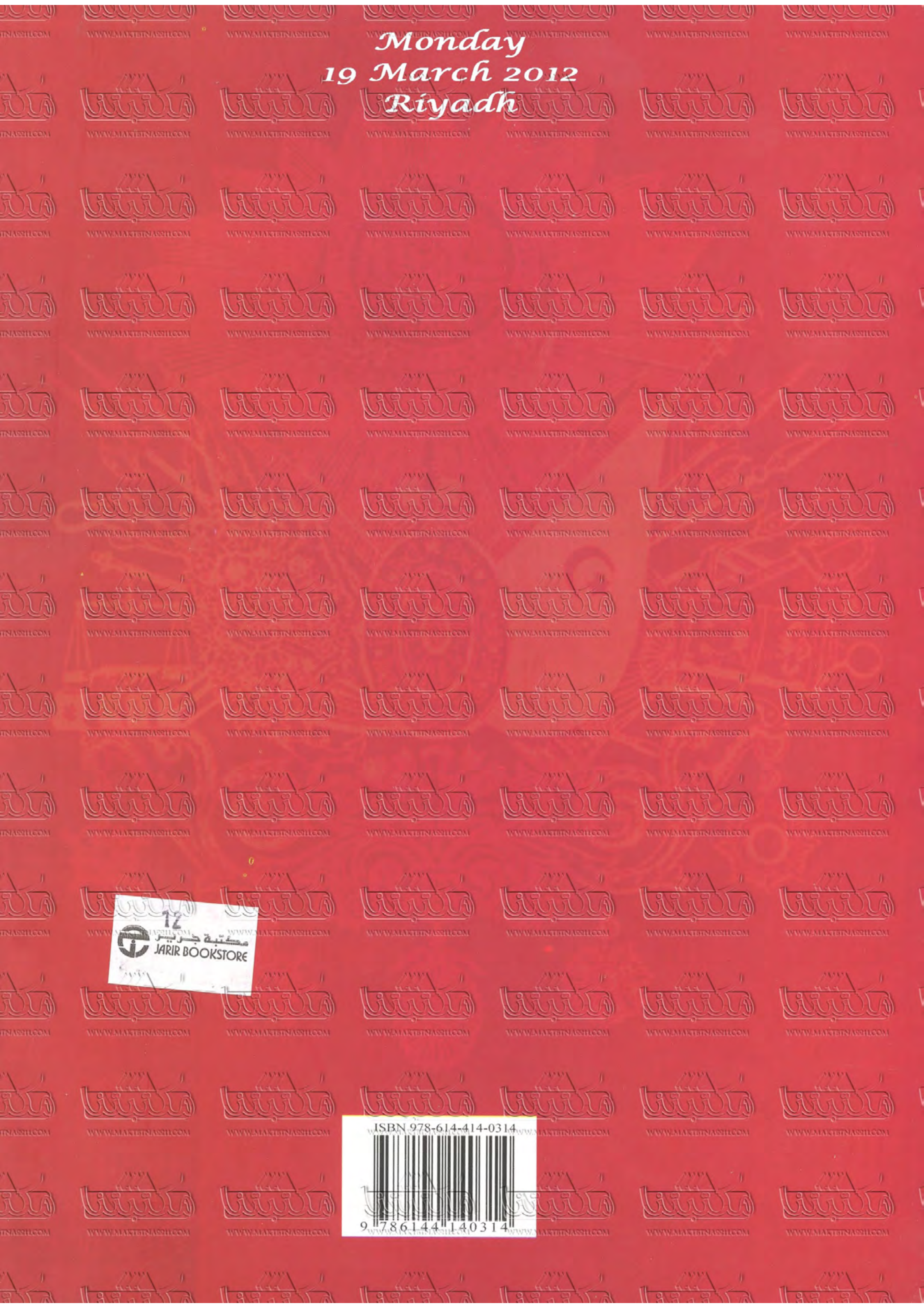

204
السلطان
عبد الحميد الثاني
وفكرة الجامعة الإسلامية
وأسباب زوال
الخلافة العثمانية
د. علي محمد الصلابي
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت
Ahmed Mady
http://www.maktbtna2211.com/


Monday
19 March 2012
Riyadh
12
مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
ISBN 978-614-414-0314
9 786144 140314

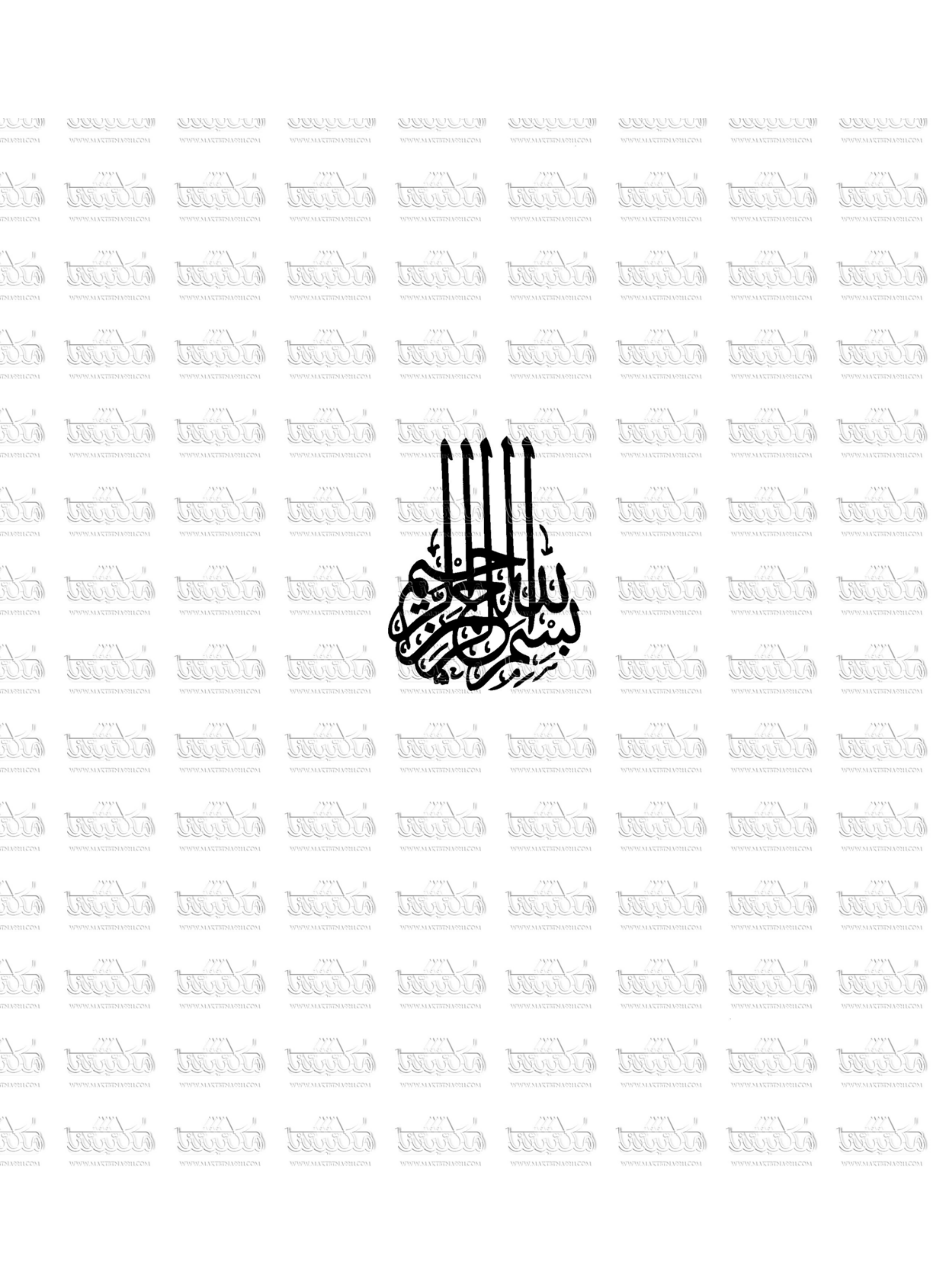


السلطان عبد الحميد الثاني

وفكرة الجامعة الإسلامية وأسباب زوال الخلافة العباسية

الدكتور
علي محمد الصلابي

المكتبة العصرية
صيدا - بيروت


بسم الله الرحمن الرحيم

تنويه

هذا الكتاب «السلطان بن عبد الحميد الثاني وفكرة الجامعة الإسلامية وأسباب زوال الخلافة العثمانية» جزء من كتابي «الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط» رأيت نشره منفرداً لأهميته ولتعم الفائدة.



الإهـداء

إلى كل مسلم حريص على إعزاز دين اللّه ونصرته، أُهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عزّ وجل بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلا أن يكون خالصاً لوجهه الكريم:

قال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴾ [الكهف: ١١٠].

مقدمة

إنَّ الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستهديه ونستغفره، ونعوذ باللَّه من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللَّه فلا مضلّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلَّا اللَّه وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا * يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أمّا بعد:

فهذا الكتاب جزء من كتابي «**الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط**»، وقد أفردته من باب الفائدة وتسهيل وصول الحقائق التاريخية إلى المسلمين لعلهم يستخلصون منها الدروس والعِبَر، ويستفيدون منها في صراعهم مع خصوم وأعداء الإسلام، فهذا الكتاب يتحدّث عن الجهود العظيمة التي قام بها السلطان عبد الحميد الثاني خدمةً للإسلام، ودفاعاً عن دولته، وتوحيداً لجهود الأمة تحت رايته، وكيف ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية في معترك السياسة الدولية في عهده، ويُفصّل الكتاب في الوسائل التي اتّخذها السلطان عبد الحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية، كالاتّصال بالدُّعاة، وتنظيم الطُّرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خط سكّة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء. ويُركّز الكتاب على جهود الصهيونية العالمية في دعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني كالمتمردين الأرمن، والقوميين البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع الحركات الانفصالية عن الدولة العثمانية، وكيف استطاع أعداء الإسلام عزل السلطان عبد الحميد، وما هي الخطوات التي اتُّخذت للقضاء على الخلافة العثمانية، وكيف صُنع البطل المزيف مصطفى كمال، الذي عمل على سلخ تركيا من عقيدتها وإسلامها، وحارب

التديُّن، وضَيَّق على الدُّعاة، ودعا إلى السُّفور والاختلاط. وفي نهاية الكتاب اهتمّ الباحث بالتركيز على أسباب سقوط الدولة العثمانية من المنظور القرآني، ويبيّن أنَّ أسباب السقوط عديدة منها: انحراف الأمة عن مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشار مظاهر الشِّرك والبِدَع، وظهور الطُرق الصوفية المنحرفة كقوّة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، وتحدّث عن خطورة الفِرَق المنحرفة في إضعاف الأمة كالفرقة الاثني عشرية الشيعية الرافضية، والدروز، والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية، والبهائية، وغيرها من الفِرق الضالة المحسوبة على الإسلام. وتحدَّث الكتاب عن غياب القيادة الربانية كسبب في ضياع الأمة، وخصوصاً عندما يصبح علماؤها ألعوبة بيد الحكام الجائرين، ويتسابقون على الوظائف والمراتب ويغيب دورهم المطلوب منهم، وتحدث الكتاب عن الكيفية التي أُصيبت بها العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، وكيف اهتم العلماء بالمختصرات والشروح والحواشي والتقريرات، وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، ورفض كثير منهم فتح باب الاجتهاد وأصبحت الدعوة لفتح بابه تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلّدين والجامدين إلى حدّ الكفر، وتعرّض الكتاب للظلم الذي انتشر في الدولة وما أصابها من الترف والانغماس في الشهوات وشدة الاختلاف والتفرُّق وما ترتّب على الابتعاد عن شرع اللّه من آثار خطيرة، كالضعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعملي، والأخلاقي، والاجتماعي، وكيف فقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، وكيف استُعمرت وغُزيت فكرياً، نتيجة لفقدها لشروط التمكين وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية، وجهلها بسنن اللّه في نهوض الأمم وسقوطها، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

إنَّ هذا الكتاب محاولة جادة لتسليط الأضواء على السلطان عبد الحميد الثاني وإزالة المُغالطات والأكاذيب التي أُلصقت بسيرته، كما أنَّ هذا الكتاب يُذكّر القارئ المسلم بأهمية معرفة عوامل نهوض الدُّول وأسباب سقوطها لكي يستفيد منها في مسيرته الدعوية والحركية والعلمية وفي سعيه الحثيث لإعزاز دين اللّه ونصرته، وأرجو من اللّه تعالى أن يكون هذا العمل لوجهه خالصاً ولعباده نافعاً،



وأن يُثيبَني على كل حرف كتبته ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يُثيبَ إخواني الذين أعانوني بكافة ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

«سبحانك اللَّهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد للَّه ربِّ العالمين».

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه
علي محمد محمد الصلابي
٩ ذي الحجة ١٤٢٢ هجرية
٢١ فبراير ٢٠٠٢م

❂❂❂

الفصل الأول

السلطان عبد الحميد

١٢٩٣ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م

السلطان عبد الحميد هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية. تولى عرش الدولة وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، إذ ولد في ١٦ شعبان سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م.

ماتت والدة السلطان عبد الحميد وهو في العاشرة من عمره، فاعتنت به الزوجة الثانية لأبيه وكانت عقيماً، فأحسنت تربيته وحاولت أن تكون له أُمّاً، فبذلت له من حنانها كما أوصت بميراثها له. وقد تأثر السلطان عبد الحميد بهذه التربية وأعجب بوقارها وتدينها وصوتها الخفيض الهادئ، وكان لهذا انعكاس على شخصيته طوال عمره.

تلقى عبد الحميد تعليماً منتظماً في القصر السلطاني على أيدي نخبة مختارة من أشهر رجالات زمنه علماً وخلقاً، وقد تعلم من اللغات العربية والفارسية، ودرس التاريخ وأحب الأدب، وتعمق في علم التصوف، ونظم بعض الأشعار باللغة التركية العثمانية[١].

وتدرب على استخدام الأسلحة وكان يتقن استخدام السيف، وإصابة الهدف بالمسدس، ومحافظاً على الرياضة البدنية، وكان مهتماً بالسياسة العالمية ويتابع الأخبار عن موقع بلاده منها بعناية فائقة ودقة نادرة.

أولاً

زيارته إلى أوروبا مع عمه عبد العزيز

قام السلطان عبد العزيز بزيارة أوروبا يرافقه وفد عثماني رفيع المستوى وكان من ضمنه الأمير عبد الحميد الذي ظهر أمام الأوروبيين بملابسه البسيطة وسيرته الحميدة في العفة[٢]، وقد استعد الأمير عبد الحميد لهذه الرحلة بمطالعات

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، محمد حرب، ص ٣١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

واسعة، فإنه كان دقيقاً في رؤيته، وفي حكمه على الأشياء التي رآها في الغرب، ولقد التقى الوفد العثماني بساسة ذلك العصر في أوروبا مثل: نابليون الثالث في فرنسا، والملكة فتكوريا في إنكلترا، وليوبولد الثاني في بلجيكا، وغليوم الأول في ألمانيا، وفرنسوا جوزيف في النمسا[١]، وقد سبقت تلك الرحلة زيارته مع السلطان عبد العزيز إلى مصر وانتبه أثناء وجوده في مصر إلى الزيف الكاذب للبريق الأوروبي والأخذ هناك بالشكليات الأوروبية، مما جعل مصر تستدين وتغرق في الديون، نتيجة انطلاق الوالي الخديوي إسماعيل باشا في إسرافه ومحاولته جعل مصر قطعة من أوروبا، وأما رحلته إلى أوروبا فقد استغرقت من **٢١ يونيو إلى ٧ أغسطس من عام ١٨٦٧م**. زار فيها الوفد العثماني فرنسا وإنكلترا وبلجيكا وألمانيا والدولة النمساوية المجرية.

وفي هذه الرحلة الأوروبية، تفتح ذهن عبد الحميد إلى أمور كثيرة، انعكست على فترة حكمه كلها بعد ذلك. وهذه الأمور هي:

١ ـ الحياة الأوروبية بكل ما فيها من طرق معيشة غريبة وأخلاقيات مختلفة وشكليات.

٢ ـ التطور الصناعي والعسكري وبخاصة في القوات البرية الفرنسية والألمانية وفي القوات البحرية البريطانية.

٣ ـ ألاعيب السياسة العالمية.

٤ ـ تأثير القوى الأوروبية على سياسة الدولة العثمانية، وبخاصة تأثير نابليون الثالث على عمه السلطان عبد العزيز، وضغط نابليون عليه، ليلتزم بمساندة الوزير علي باشا، رغم أن السلطان عبد العزيز لم يكن يُشعر أحداً أنه تحت تأثير أي قوة غربية[٢].

اقتنع الأمير عبد الحميد في هذه الرحلة: أن فرنسا دولة لهو، وإنكلترا دولة ثروة وزراعة وصناعة. أما ألمانيا فهي دولة نظام وعسكر وإدارة وكان إعجابه بألمانيا كثيراً، لذلك عهد بتدريب الجيش العثماني إليها ـ عندما أصبح سلطاناً ـ ولقد تأثر الأمير عبد الحميد بهذه الرحلة ودفعه ذلك التأثر إلى الاهتمام بإدخال المخترعات الحديثة في دولته في مختلف نواحي الحياة: تعليمية وصناعية ووسائل اتصالات وعسكرية، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: شراؤه غواصتين وكان سلاح

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٣.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٥٦.

الغواصات جديداً. وأدخل التلغراف إلى بلاده من ماله الخاص، وأنشأ المدارس الحديثة، وأدخل فيها العلوم العصرية، وأدخل إلى البلاد أول سيارة وأول دراجة، وأخذ بنظام القياس المتري. لكنه وقف بحزم ضد سريان الفكر الغربي في البلاد(١).

أثرت رحلة عبد الحميد إلى أوروبا أيضاً في اتباعه سياسة استقلالية تجاه أوروبا. ولم يعرف عن عبد الحميد تأثير أي حاكم أوروبي عليه، مهما كانت صداقته ومهما كانت درجة التقارب بين بلده وبين الدولة العثمانية.

ولفت انتباه عبد الحميد أثناء هذه الرحلة الحوار الذي كان يجريه فؤاد باشا الصدر الأعظم العثماني مع بعض الزعماء الأوروبيين:

سُئل فؤاد باشا أثناء هذه الرحلة: بكم تبيعون جزيرة كريت؟

فرد الباشا قائلا: «بالثمن الذي اشتريناها به»، وكان يعني بذلك: أن العثمانيين حاربوا في سبيل الحفاظ على جزيرة كريت ٢٧ عاماً كلها حروب.

وسُئل فؤاد باشا أيضاً: (ما هي أقوى دولة في العالم الآن؟).

فرد قائلاً: «أقوى دولة الآن هي الدولة العثمانية؛ ذلك لأنكم تهدمونها من الخارج ونحن نهدمها من الداخل. ولم يستطع كلانا هدمها»(٢).

تعلم عبد الحميد من هذا درس القدرة على إسكات القوى التي تود تحطيم الدولة العثمانية. وتعلم ذكاء الحوار السياسي وهو ما برع فيه بعد ذلك.

وكان عمر عبد الحميد أثناء هذه الرحلة ٢٥ عاماً(٣).



ثانياً

بيعته للخلافة وإعلان الدستور

بويع بالخلافة بعد أخيه مراد، يوم الخميس **١١ شعبان ١٢٩٣هـ ــ ٣١ أغسطس ١٨٧٦م** وكان عمره آنذاك أربعاً وثلاثين سنة، وحضر لمبايعته الوزراء والأعيان وكبار الموظفين من مدنيين وعسكريين في سراي طوبقيو. وهنأه بالخلافة كذلك رؤساء الطوائف المختلفة، وأطلقت المدافع بسائر أطراف السلطنة احتفالاً بهذه المناسبة. وأقيمت الزينات بجميع جهات استانبول ثلاثة

(١) المصدر السابق، ص ٥٧.
(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٥٨.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٥٨.

أيام، وأرسل الصدر الأعظم برقيات إلى دول العالم لإعلامها بذلك[١].

وكان السلطان عبد الحميد قد عيّن مدحت باشا صدراً أعظم، ثم أعلن في ٢٣ ديسمبر (١٢٩٣هـ ـ ١٨٧٦م) الدستور الذي يضمن الحريات المدنية وينص على مبدأ الحكومة البرلمانية.

كان هذا الدستور، ينص على أن البرلمان يتكون من مجلسين: مجلس النواب أو المبعوثين ثم مجلس الأعيان أو الشيوخ[٢].

وقد تعرض السلطان عبد الحميد في بداية حكمه إلى استبداد الوزراء واشتداد سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد، والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب والتي استطاعت الأيدي الماسونية أن تجندهم لخدمة أهدافها، ولقد بلغ من استبداد هؤلاء الوزراء بالحكم، أن كتب مدحت باشا، وهو في مقام الرئاسة لنخبة العثمانيين الجدد، إلى السلطان عبد الحميد في أول عهده بالعرش (١٨٧٧م): «لم يكن غرضنا من إعلان الدستور إلا قطع دابر الاستبداد، وتعيين ما لجلالتكم من الحقوق وما عليها من الواجبات، وتعيين وظائف الوزراء، وتأمين جميع الناس على حريتهم وحقوقهم، حتى تنهض البلاد إلى مدارج الارتقاء، وإني أطيع أوامركم إذا لم تكن مخالفة لمنافع الأمة...»[٣].

ويقول السلطان عبد الحميد في هذا:

«ولقد وجدت مدحت باشا ينصّب نفسه آمراً ووصياً عليّ. وكان في معاملته بعيداً عن المشروطية (الديمقراطية) وأقرب إلى الاستبداد»[٤].

وكان مدحت باشا وأصحابه من الماسون يدمنون الخمر. قال السلطان عبد الحميد في مذكراته: « ...ومن المعروف أن أحرار ذلك العهد من شعراء وأدباء اجتمعوا مساء يوم صدور مرسوم القانون الأساسي في قصر مدحت باشا، لا ليتحدثوا في أمور الدولة، بل في أمور السكر والعربدة، وهم يحتسون الخمر، ومدحت باشا يدمن الخمر منذ شبابه ومشهور عنه هذا، والتقت نشوة الخمر بالنشوة التي بعثها إعلان القانون الأساسي، وعندما نهض مدحت باشا من على مائدة الأكل خرج مستنداً على أذرع الآخرين حتى لا يقع على الأرض. وبينما كان

---

(١) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص ١٨٣.
(٢) انظر: الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث، ص ١٧٨.
(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٥٩.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٦٠.

يغسل يديه قال لزوج أخته طوسون باشا وهو يؤرجح لسانه في فمه (بتأثير الخمر):

- يا باشا! من يستطيع الآن، وبعد كل ما وصلت إليه أن يبعدني عن منصبي؟! من؟! قل لي كم عاماً سأبقى في الصدارة العظمى؟

رد عليه طوسون باشا قائلاً:

- إذا بقيتم على هذا الحال، فليس أكثر من أسبوع[(١)]!

لقد كان مدحت باشا في مجالس الخمر الخاصة به يفشي أدق أسرار الدولة، وكانت هذه الأسرار تنتشر في اليوم التالي بين أهالي استانبول، وفي إحدى الليالي تحدث مدحت باشا عن عزمه على إعلان الجمهورية في الدولة العثمانية وأنه سيصبح رئيساً للجمهورية العثمانية الجديدة ثم إمبراطوراً لها. تماماً مثلما حدث مع نابليون الثالث بفرنسا[(٢)].

وكان مدحت باشا متهماً بقتل السلطان عبد العزيز، وشكل السلطان عبد الحميد لجنة للتحقيق في ذلك ثم قدم المتهمين إلى المحكمة التي أدانتهم وحكم على مدحت باشا بالإعدام، وتدخل السلطان عبد الحميد وخفض الحكم إلى السجن، ثم النفي إلى الحجاز حيث مقر السجن العسكري هناك.

كان الدستور ينص على فصل السلطات من حيث الشكل لا المضمون، كما أن التغييرات التي طرأت على نظام الحكم طبقاً له كانت من قبيل التطور، فلم يفكر أحد في تقليص حق السلطان في السيادة، كما نص الدستور على أن شخص السلطان مصون لا يمس، وأنه لا يسأل أمام أحد عن أعماله، ومن ثم كان الدستور مرتهناً بشخصه[(٣)]. فله وحده تعيين وإقالة الوزراء، كما أنه هو الذي يعقد المعاهدات ويعلن الحرب ومعاهدات الصلح، وهو القائد العام للقوات المسلحة ومن حقه كذلك إصدار جميع القوانين في شتى المجالات دون الرجوع إلى البرلمان. وهكذا ظل السلطان عبد الحميد الثاني (١٢٩٣ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م) يتمتع بالسلطة التي سبق لأسلافه أن تمتعوا بها، بحيث إن مدحت باشا ذاته كان أول الضحايا. كما أن الصلاحيات الواسعة التي منحها الدستور للسلطان حدت من سلطة رئيس الوزراء بحيث لم يتح له أن يلعب سوى دور ثانوي في تسيير دفة الحكم[(٤)].

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص ٧٧.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٧٧.

(٣) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٣٤.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٣٤.

ونص الدستور على حرية أعضاء البرلمان في إبداء آرائهم وفي التصويت، وكان لا يمكن محاكمتهم إلا إذا تجاوزوا حدود قوانين المجلس، وحدد الدستور اللغة التركية العثمانية باعتبارها اللغة الرسمية للدولة التي يجري بها الحديث في كل الجلسات، كما نص على أن يكون التصويت سرياً أو علنياً بحسب الظروف، وعلى أن يقر مجلس النواب الميزانية دون تدخل من جانب السلطان بعكس الحال في ما يتعلق بالقوانين العادية.

وأما بالنسبة لحقوق الأفراد، فقد أعلن الدستور أن العثمنة هي السياسة الرسمية للدولة في إطار مبدأ المساواة الذي نصت عليه التنظيمات، فقد خلع الدستور صفة العثمانية على كل رعايا الدولة أياً كان دينهم، ونص على تمتعهم بالحرية الشخصية، وعلى تساوي كل العثمانيين أمام القانون، وعلى منحهم نفس الحقوق مع إلزامهم بنفس الواجبات. ونص الدستور كذلك على استقلال القضاء وأبقى على المحاكم الشرعية على أن يلجأ غير المسلمين لمحاكم الملل في المسائل المتعلقة بشؤونهم الدينية[١].

وقد أمر السلطان عبد الحميد بأن يوضع الدستور موضع التنفيذ، وبأن تجري انتخابات عامة، كانت الأولى من نوعها في التاريخ العثماني، وقد أسفرت تلك الانتخابات عن تمثيل المسلمين بـ (٧١) مقعداً والنصارى بـ (٤٤) مقعداً واليهود بـ (٤) مقاعد، واجتمع أول برلمان عثماني في ٢٩ مارس عام ١٨٧٧م (١٢٩٤هـ) وكان مجلس الأعيان والشيوخ يتكون من ٢٦ عضواً بالتعيين من بينهم ٢١ مسلماً، في حين كان مجلس النواب يتكون من مائة وعشرين عضواً. وقد قام بعض نواب العرب بدور مهم خلال المناقشات، غير أن مجلس المبعوثين كانت مدته قصيرة؛ فقبل أن يتم المجلس دورة انعقاده الثانية، طلب النواب في ١٣ فبراير عام ١٨٧٨م (١٢٩٦هـ) أن يمثل ثلاثة من الوزراء أمام المجلس للدفاع عن أنفسهم من الاتهامات الموجهة إليهم، فما كان من السلطان عبد الحميد إلا أن عطل المجلس وأمر بعودة النواب إلى بلادهم، وقام بنفي وإبعاد البارزين منهم[٢].

وبذلك بلغت مدة انعقاد المجلس خلال دورته الأولى والثانية عشرة شهور وخمسة وعشرين يوماً، ولم يدع هذا المجلس للاجتماع ثانية لمدة ثلاثين عاماً، لم تفتح خلالها قاعة المجلس ولا مرة واحدة[٣].

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.

(٣) انظر: البلاد العربية والدولة العثمانية، ساطع الحصري، ص ٩٩، ١٠٠.

لقد كان السلطان عبد الحميد مضطراً إلى إعلان الدستور بسبب الضغوط التي مارسها عليه الماسون بقيادة مدحت باشا، ولذلك عندما أتيحت له الفرصة قام بتعطيل المجلس.

كان عبد الحميد الثاني ضد الديمقراطية والحكم بالدستور الذي عرف في المصطلح العثماني باسم «المشروطية» أي الاشتراط على الحاكم بتحديد سلطانه، على اعتبار أن هذا فكر وافد من الغرب، ولذلك كان ضد المنادين به ورائدهم مدحت باشا وانتقد وزيره هذا بقوله: «لم ير غير فوائد الحكم المشروطي في أوروبا، لكنه لم يدرس أسباب هذه المشروطية ولا تأثيراتها الأخرى، أقراص السلفات لا تصلح لكل مرض ولكل بنية، وأظن أن أصول المشروطية لا تصلح لكل شعب ولكل بيئة قومية. كنت أظن أنها مفيدة، أما الآن: فإني مقتنع بضررها»[١].

كان للسلطان حججه في هذا، منها سوء تصرف المنادين بالدستور في أول استجابة للسلطان لأفكارهم. من ذلك:

أن طلبت الحكومة من السلطان في وقت إعلان السلطان للدستور، أن يوقع على بعض القرارات منها تعيين ولاة نصارى في ولايات، أغلب سكانها من المسلمين، وعلى قرار بقبول طلبة من النصارى في الكلية الحربية العثمانية التي هي عماد الجيش العثماني، فرفض السلطان التوقيع فما كان من مدحت باشا ـ وهو الوزير ـ إلا أن قال للسلطان: «إن مقصدنا من إعلان الدستور أن ننهي استبداد القصر، ويجب على جلالتكم أن تعرف واجباتكم»[٢].

ومن الأسباب التي يسوقها السلطان عبد الحميد في رفضه للفكر الدستوري قوله: «إن الدولة العثمانية دولة تجمع شعوباً شتى، والمشروطية في دولة كهذه موت للعنصر الأصلي في البلاد، وهل في البرلمان الإنكليزي نائب هندي واحد؟ وهل في البرلمان الفرنسي نائب جزائري واحد؟»[٣].

ولم يغير السلطان عبد الحميد موقفه تجاه الحكم الدستوري في دولته حتى بعد أن عزل عن العرش، وأخذ الناس يمارسون الحكم الدستوري، فيقول: «ماذا حدث عندما أعلنت المشروطية؟ هل قلَّت الديون؟ وهل كثرت الطرق والموانئ والمدارس؟ هل أصبحت القوانين الآن أكثر تعقلاً ومنطقاً؟! وهل ساد الأمن

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، محمد حرب، ص ٨٠.
(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٩٥.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٩٥.

الشخصي؟ هل الأهالي الآن أكثر رفاهية؟ هل تناقصت الوفيات وزاد المواليد؟ هل أصبح الرأي العام العالمي الآن بجانبنا أكثر من ذي قبل؟ الدواء النافع يصبح سماً زعافاً إذا كان في يد غير الأطباء. أو في أيدي من لا يعرفون أصول استعماله، وإني لجد آسف فالأحداث قد أظهرت صدق كلامي»[١].

ويبين السلطان عبد الحميد بأن موقفه ليس دائماً ضد الحكم الدستوري، فالظروف التي كان يحكم فيها، إذا اختلفت، فستختلف وجهة نظره في الحكم الدستوري.

وفي هذا يقول: «ينبغي ألا يظن أن فكري واقتناعي دائماً ضد الحكم الذي يعتمد على أصول المشروطية»[٢].

لقد مرَّ عصر السلطان عبد الحميد بظروف عصيبة، وأزمات شديدة، وتآمر عالمي على الدولة العثمانية من الداخل والخارج، فشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية لمنع التدخل الأوروبي في شؤون الدولة، وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية وقام بإبعاد الكتّاب والصحفيين عن العاصمة وقاوم كل الاتجاهات الغربية المخالفة للحضارة الإسلامية المجيدة في ولايات الدولة، واستطاع أن يشكل جهازاً استخباراتياً قوياً لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه في الخارج، واهتم بفكرة الجامعة الإسلامية وحقق بها نتائج عظيمة، واهتز الأوروبيون من هذا التفكير الاستراتيجي العميق وعملوا على تفتيته.

لقد تكلم السلطان عبد الحميد عن جهاز مخابراته وبيّن الغرض منه فقال: «حسب العرف العثماني، يتعرف السلطان على تفكير الرعية وشكواها عن طريق جهاز الحكم، ومن ولاته وقضاته من جانب، وعن طريق التكايا المنتشرة في ربوع البلاد بمشايخها ودراويشها من جانب آخر، فيجمع كل هذه الأخبار ويدير البناء عليها.

جدّي السلطان محمود الثاني وسّع دائرة مخابراته بإضافة الدراويش الرحل إليها. كان ذلك عندما ارتقيت العرش، وعلى ذلك استمر.

علمت ذات يوم من موسوروس باشا، سفيرنا في لندن، أن الصدر الأعظم السابق، السَرْ عسكر حسين عوني باشا، تسلم نقوداً من الإنكليز، إذا كان الصدر الأعظم وهو يحكم البلاد باسم السلطان يخون دولته، فإن مخابراته لا بد أن تبلغ

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٩٦.

(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٩٦.

القصر على أنه يؤدي عمله على الوجه الأكمل، لذلك تكدرت وتأثرت في أثناء تلك الأيام، عندما قابلني محمود باشا، وأدلى إليَّ ببعض معلومات عن بعض أعضاء «تركيا الفتاة»، وكانت الأخبار التي قدمها لي مهمة. سألته عن طريق حصوله عليها، فعرفت أنه أنشأ مخابرات خاصة، واحتوى ـ بالنقود ـ أقارب لبعض الأشخاص من «تركيا الفتاة»، وهؤلاء كانوا يقابلونهم ويسمعون منهم ثم يخبرونه، فيدفع لهم.

صحيح أنه زوج أختي، إلا أنه لا يصح أن يقيم أحد باشوات الدولة مخابرات مستقلة عن مخابرات الدولة، قلت له أن يحل جهازه هذا فوراً، وألا يعاود العمل بمثل هذا الأمر مرة أخرى، فأحال إليّ جهازه هذا، وهو متضايق كثيراً.

لا يمكن للدولة أن تكون آمنة، إذا تمكنت الدول الكبرى أن تجند لخدمة أهدافها أشخاصاً في درجة وزير أعظم.

بناءً على هذا قررت إنشاء جهاز مخابرات يرتبط بشخصي مباشرة، وهذا هو الجهاز الذي يسميه أعدائي بالجورنالجية (الشرطة السرية ـ المخابرات).

وكان ضرورياً أن أعرف أن من بين أعضاء جهاز الجورنالجية (المخابرات) المخلصين الحقيقيين أشخاصاً مفترين، لكني لم أصدق ولم آخذ بأي شيء يأتي من هذا الجهاز مطلقاً دون تحقق دقيق.

كان جدّي السلطان سليم (سليم الثالث) يصيح قائلاً: إن أيدي الأجانب تتجول فوق كبدي، وعلينا أن نرسل السفراء إلى الدول الأجنبية لنقل أساليب التقدم الأوروبي وعلينا إرسال الرسل إلى الخارج، ولنعمل سريعاً على تعلم ما وصلوا إليه.

كنت أحس أنا أيضاً بأيدي هؤلاء الأجانب، ليست فوق كبدي، وإنما في داخله. إنهم يشترون صدوري العظام ووزرائي ويستخدمونهم ضد بلادي. كيف يحدث هذا وهم الذين أنفقت عليهم من خزانة الدولة ولا أستطيع معرفة ما يعملونه وما يدبرون ويعدّون؟

نعم، أنا أسست جهاز الجورنالجية (المخابرات). وأنا أدرته.

متى حدث هذا؟

بعد أن رأيت صدوري العظام يرتشون من الدول الأجنبية مقابل هدم دولتهم والتآمر على سلطانهم، أسست هذا الجهاز لا ليكون أداة ضد المواطن، ولكن لكي

يعرف ويتعقب هؤلاء الذين خانوا دولتي، في الوقت الذي كانوا يتسلمون فيه رواتبهم من خزانتها، وفي الوقت الذي كانت النعمة العثمانية تملؤهم حتى حُلُوقهم[١]!!».

لقد وجهت للسلطان عبد الحميد انتقادات عنيفة من قبل جمعية الاتحاد والترقي بسبب جهاز الاستخبارات الذي شكله. وفي الحقيقة أستطاع ذلك الجهاز أن يحقق إيجابيات كبيرة للدولة العثمانية فعندما (...كان مثيرُ الشغب والإرهابيون يثيرون الأرمن للتمرد ضد الدولة العثمانية كان الجنود يتصدون لهم وتُراق دماء كثيرة... كان جهاز السلطان عبد الحميد ـ خلال ثلاثين سنة ـ يخبر السلطان فور ظهور كل حركة، ولذلك تمكن السلطان من إخماد كل تمرد داخلي في حينه)[٢].

ثالثاً

تمردات وثورات في البلقان

قام سكان الجبل الأسود والصرب بتحريض بلاد الهرسك للخروج على الدولة العثمانية وكان ذلك في عام (١٢٩٣هـ/ ١٨٧٦م) واستطاع العثمانيون إخمادها، ورغب السلطان عبد الحميد في منع الدول الأوروبية من التدخل، فأصدر قراراً بفصل القضاء عن السلطة التنفيذية، وتعيين القضاة بالانتخاب عن طريق الأهالي، والمساواة في الضرائب بين المسلمين والنصارى... ولم يرض بذلك السكان، فعادوا إلى الثورة التي قمعت أيضاً، ولكن النمسا التي كانت وراء الثورة وترغب في ضم البوسنة والهرسك إليها استمرت في تحريض السكان ضد الدولة العثمانية، فعملت النمسا مع روسيا وألمانيا وفرنسا وإنكلترا على الطلب من السلطان بالقيام بإصلاحات فوافق عليها السلطان، ولكن نصارى البوسنة لم يتقبلوا ذلك. وهذا يدل على أن المطالبة بالإصلاحات ليست سوى مبررات واهية، وحقيقة الأمر أنهم يريدون التدخل في شؤون الدولة بشكل مباشر وغير مباشر لإضعافها والإطاحة بها[٣].

كما قامت ثورة البلغار في نفس الوقت الذي قام فيه نصارى البوسنة والهرسك بثورتهم بدعم من النمسا والدول الأوروبية وخاصة روسيا، فقد تأسست

---

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٦٠.

(٢) و (٣) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٨٩.

جمعيات في بلاد البلغار لنشر النفوذ الروسي بين النصارى الأرثوذكس والصقالبة، وكانت تدعمها روسيا وتمدها بالسلاح، وتبذل هذه الجمعيات بدورها جهدها لإثارة سكان الصرب والبوسنة والهرسك، وتحرضهم على الثورة ضد العثمانيين، وعندما أنزلت الدولة العثمانية بعض الأسر الشركسية احتج البلغار على ذلك، فقاموا بثورة وساعدتهم روسيا والنمسا بالسلاح والأموال؛ فتمكنت الدولة العثمانية من القضاء على الثورة، فأخذت الدول الأوروبية تثير الشائعات عن المجازر التي ارتكبها العثمانيون ضد النصارى والعكس هو الصحيح، أثير بهذه الشائعات الرأي العام الأوروبي ضد الدولة العثمانية، وطالبت الحكومات الأوروبية باتخاذ إجراءات صارمة ضد العثمانيين ومنها حصول البلغار على استقلال ذاتي وتعيين حاكم نصراني لهم(١).

وقام الروس والألمان والنمساويون بدفع الصرب والجبل الأسود للقيام بحرب ضد العثمانيين، وكانت روسيا ترغب في توسيع حدودها من جهة بلغاريا، والنمسا تريد توسعة حدودها من جهة البوسنة والهرسك، ووعدت هذه الدول أمير الصرب والجبل الأسود بالدعم. وشرع الجنود الروس بالتدفق سراً على بلاد الصرب، والجبل الأسود، وتمكنت الدولة العثمانية من الانتصار على الصرب وحلفائهم، فتدخلت الدول الأوروبية وطلبت وقف القتال وإلا فالحرب الواسعة(٢).

واجتمع مندوبو الدول الأوروبية في استانبول وقدموا اقتراحات للدولة من أهمها:

تقسيم بلاد البغار إلى ولايتين ويكون ولاتها من النصارى، وأن تشكل لجنة دولية لتنفيذ القرارات، وأن تعطى هذه الامتيازات لإمارتي البوسنة والهرسك أيضاً، وأن تتنازل الدولة عن بعض الأراضي للصرب والجبل الأسود.

ولكن الدولة العثمانية رفضت هذه القرارات، وعقدت صلحاً منفرداً مع الصرب سحبت نتيجته جيوشها من بلاد الصرب، وأن يرفع العلم العثماني والصربي دليلاً على السيادة العثمانية(٣).

لقد كان السلطان عبد الحميد الثاني على يقين من أن هدف الدول الغربية هو السعي للإسقوط الدولة العثمانية حيث قال في مذكراته: «رأيت أثناء مؤتمر الدول

---

(١) انظر: الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٨٩.
(٢) و (٣) الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٠.

الكبرى الذي عقد في استانبول ما عزمت عليه هذه الدول، وهي ليست كما يقولون تأمين حقوق الرعايا المسيحيين بل تأمين الاستقلال الذاتي لهؤلاء الرعايا. ثم العمل على استقلالهم التام، وبذلك يتم تقسيم الدولة العثمانية.

كانوا يعملون على تحقيق هذا الهدف على صورتين:

الأولى: إثارة الأهالي المسيحيين، وتعكير صفاء الجو، وبهذا تتصدى هذه الدول لحمايتهم.

والثانية: القول بالمشروطية، لإحداث الفرقة بيننا أنفسنا، واستطاعوا أن يجدوا من بيننا أنصاراً يستخدمونهم في كلتا الغايتين، وبكل أسف كان على خبز العدو شيء من السمن، فلم يستطع بعض الشباب العثماني المثقف أن يفرق بين التطبيق السهل والحكم الدستوري في بلاد تتمتع بوحدة قومية، وبين تعذر هذا الحكم في الدول التي لا تتمتع بوحدة قومية[(١)]».

رابعاً

الحرب الروسية العثمانية

كانت روسيا ترغب في الوصول إلى المياه الدافئة بسبب عوامل دينية واقتصادية وجغرافية، وقد نص (بطرس الأكبر) (١٦٢٧ ـ ١٧٢٥م) في وصيته للروس ـ في الفقرات التاسعة والحادية عشرة والثالثة عشرة ـ على ضرورة الصراع الحضاري ضد العثمانيين، إلى أن تنتهي الدولة العثمانية من الوجود.

يقول (بطرس الأكبر) في الفقرة التاسعة من وصيته:

(نقترب من القسطنطينية والهند بقدر الإمكان، فمن يملك القسطنطينية فقد ملك العالم، بناء على ذلك ينبغي ملازمة الحرب مع العثمانيين).

وفي الفقرة الحادية عشرة يقول: (نشارك النمسا فيما قصدناه من إخراج العثمانيين من أوروبا).

وفي الفقرة الثالثة عشرة يقول: (وبعد التسلط على الممالك العثمانية، نجمع جيوشنا وندخل أساطيلنا بحر البلطيق والبحر الأسود ونشرع في التفاوض مع فرنسا ودولة النمسا في قسمة العالم بيننا)[(٢)].

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٤٥.
(٢) انظر: التحفة الحليمية، إبراهيم حلمي بك، ص ٢٤١.

اهتمت روسيا بتلك الوصية، وفي عصر السلطان عبد الحميد الثاني كثرت الثورات بدعم من روسيا والدول الأوروبية في البلقان واليونان وغيرها من الأقاليم العثمانية، ولم تكتف بذلك بل عملت على قيام دول نصرانية مستقلة مثل رومانيا، وبلغاريا والصرب واليونان. وبعد أن حقق العثمانيون انتصارات رائعة في البلقان استعدت روسيا للحرب ثم أعلنتها حرباً لا هوادة فيها ضد الدولة العثمانية، وانضمت رومانيا إلى روسيا، ودخل العثمانيون في حرب طاحنة مع الروس، وعبرت الجيوش الروسية نهر الدانوب واستولت على بعض المدن التابعة للعثمانيين ومنها «تيرنوه» و «نيقولبلي بل» التي تقع في بلغاريا حالياً، كما استولى الروس على بعض النقاط المهمة والمعابر المؤدية إلى البلقان، وقام السلطان عبد الحميد بتغيير كبير في قيادات الجيوش العثمانية للتصدي للغزو الروسي، وقد حاول الروس الاستيلاء على مدينة (بلفنه) التي تقع في بلغاريا حالياً وهي من أهم المعابر إلى البلقان، ولكن القائد العثماني الشجاع الغازي (عثمان باشا) تصدى لهم بكل شجاعة، فردهم على أعقابهم منهزمين، فأعادوا الهجوم مرة أخرى بقوات أكثر كثافة، ومع ذلك نجح القائد العثماني الفذ في التصدي للروس مرة أخرى، مما جعل السلطان العثماني يصدر مرسوماً خاصاً في الثناء على ذلك القائد[١].

وأمام هذا الصمود حاول الروس التغيير من سياستهم في الاستيلاء على هذه المدينة واتبعوا سياسة الحصار لها، وحاولوا منع الإمدادات من الوصول إلى الجيوش العثمانية فيها، وفي الوقت نفسه عززوا قواتهم، وحضر القيصر الروسي ليشرف بنفسه على المعركة القادمة، وانضم أمير رومانيا إلى روسيا وكان معه ١٠٠ ألف مقاتل، فأصبحت الكفة العسكرية في صالح الروس، حيث تجاوز عددهم ١٥٠ ألف مقاتل ففرضوا حصاراً من ثلاثة خطوط على القوات العثمانية، ومع هذا فإن العثمانيين المحاصرين بقيادة عثمان باشا صمدوا صمود الأبطال، ورغم أن عددهم كان قرابة ٥٠ ألف مقاتل، فإنهم لم يكتفوا بذلك الصمود، بل أعدوا خطة رائعة لهجوم معاكس على خطوط العدو المحاصر لهم طالبين بذلك إما النصر وفك الحصار عنهم أو الشهادة.

وقاد عثمان باشا قواته التي انحدرت على الأعداء وهم يهللون ويكبرون، فسقطت أعداد منهم شهداء على أيدي قوات الروس، ومع ذلك فقد تمكنوا من اختراق الخط الأول للمحاصرين، والخط الثاني، واستولوا على المدافع فيه، وأصيب القائد عثمان باشا ببعض الجراح عند الخط الثالث فسرت إشاعة قوية بين

---

(١) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٤١٨.

جنده باستشهاده ففَتَّ ذلك في عضدهم، وحاولوا الرجوع إلى المدينة، ولكن بعض قوات الروس أصبحت بداخلها، وبذلك أصبح الجند العثمانيون في العراء بين نيران العدو المختلفة، فاضطروا إلى الاستسلام للقوات الروسية. وكان ذلك في عام ١٢٩٤هـ أواخر سنة ١٨٧٧م، وقد سلم القائد العثماني نفسه وهو جريح إلى الروس الذين كانوا معجبين به ويشيدون بشجاعته وإقدامه(١)، حتى إن القائد العام للقوات الروسية قام بتهنئة عثمان باشا على دفاعه الرائع وأعاد له سيفه احتراماً لقدرته القتالية وصبره، وأرسل عثمان باشا إلى روسيا في شهر ديسمبر من نفس العام ١٨٧٧م، واستقبله القيصر بكل مراسم الاحترام ولم يعامل (عثمان باشا) معاملة الأسير(٢).

وقد شجعت تلك الانتصارات الروسية الصرب في البلقان على التحرك ضد العثمانيين وقامت جيوشهم بالهجوم على المواقع العثمانية هناك، فأشغلتهم عن الروس، الذين كانوا في الوقت نفسه يسعون لاحتلال مناطق جديدة. وبالفعل تمكن الروس من الاستيلاء على صوفيا (عاصمة بلغاريا حالياً) ولم يكتف الروس بهذا، بل توجهوا جنوباً ناحية العاصمة العثمانية القديمة، ووصلوا إلى مواقع لا تبعد سوى خمسين كيلومتراً عن إستانبول، وأصبح الموقف داخل الدولة العثمانية سيئاً إلى أبعد الحدود.

وفي الوقت نفسه كانت تجري العديد من المعارك بين العثمانيين والروس في الجانب الآسيوي حيث وصل الروس إلى الأناضول، ومع ذلك تمكن العثمانيون من هزيمتهم ومطاردتهم داخل الأراضي الروسية، وانتصر العثمانيون بقيادة أحمد مختار باشا على الروس في أكثر من ست معارك، مما جعل السلطان عبد الحميد يصدر مرسوماً في الثناء عليه، وقد عاود الروس الهجوم في تلك المناطق مرة أخرى وتمكنوا سنة ١٢٩٥هـ من إنزال الهزائم بالقوات العثمانية والاستيلاء على بعض المناطق في الأناضول نفسها(٣).

وأمام تلك الهزائم العثمانية في أوروبا وفي آسيا اضطرت الدولة العثمانية للدخول في هدنة مع الروس وقبول المفاوضات معهم، حيث وقعت بين الطرفين معاهدة سان ستيفانو عام ١٨٧٨م.

عقدت هذه المعاهدة في ٣ مارس عام ١٨٧٨م، ووقعها «صفوت باشا» عن

---

(١) المصدر السابق نفسه ص ٤١٩.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٤.

(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر العصور، ص ٤١٨.

الدولة العثمانية وهو يبكي. وكان لا بد بالضرورة أن تحتوي هذه المعاهدة على شروط مجحفة بالدولة العثمانية[١].

● **معاهدة سان ستيفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ):**

قدم المندوب الروسي شروطاً مسبقة، وطلب التوقيع عليها مباشرة وإلا تتقدم الجيوش الروسية وتحتل استانبول، ولم يكن للعثمانيين من خيار سوى التوقيع. وتنص المعاهدة على:

١ ـ تعيين حدود للجبل الأسود لإنهاء النزاع، وتحصل هذه الإمارة على الاستقلال.

٢ ـ تستقل إمارة الصرب وتضاف إليها أراضي جديدة.

٣ ـ تستقل بلغاريا استقلالاً ذاتياً إدارياً، وتدفع مبلغاً محدداً إلى الدولة العثمانية ويكون موظفو الدولة والجند من النصارى فقط. وتعيين الحدود بمعرفة العثمانيين والروس، وينتخب الأمير من قبل السكان ويخلي العثمانيون جنودهم نهائياً من بلغاريا.

٤ ـ تحصل دولة رومانيا على استقلالها التام.

٥ ـ يتعهد الباب العالي بحماية الأرمن والنصارى من الأكراد والشركس.

٦ ـ يقوم الباب العالي بإصلاح أوضاع النصارى في جزيرة كريت.

٧ ـ تدفع الدولة العثمانية غرامة حربية قدرها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبية، ويمكن لروسيا أن تتسلم أراض مقابل هذا المبلغ.

٨ ـ تبقى المضائق (البسفور والدردنيل) مفتوحة للسفن الروسية في السلم والحرب.

٩ ـ يمكن للمسلمين في بلغاريا أن يهاجروا إلى حيث يريدون من أجزاء الدولة العثمانية[٢].

وهكذا جرى تفتيت أملاك الدولة في أوروبا، وإن يكن تكبير بلغاريا قد أثار سخط الدول البلقانية الأخرى: النمسا، اليونان، والصرب، كما استاءت بريطانيا لازدياد النفوذ الروسي في البلقان فاستعدت لمحاربة روسيا، وحصلت من الدولة العثمانية على حق احتلال جزيرة قبرص (يونيو ١٨٧٨م) وإدارتها على أن تبقى

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٤٤.

(٢) انظر الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٢، ١٩٣.

تابعة للدولة العثمانية، وذلك في مقابل تعهدها بالدفاع عن أملاك الدولة في آسيا في وجه أي مزيد من التهديدات الروسية، بشرط أن يتعهد السلطان من جانبه بإدخال الإصلاحات اللازمة في أملاكه الآسيوية بالتشاور مع بريطانيا، وقد تعهدت بريطانيا بالجلاء عن قبرص في حالة جلاء الروس عن المناطق التي احتلوها في آسيا(١).

لم يكن السلطان عبد الحميد راضياً في الأصل بدخول هذه الحرب لذلك لم يصدِّق على المعاهدة وقام بجهود سياسية ودبلوماسية مكثفة، حتى أقنع بريطانيا بالوقوف بجانبه، وبذلك ضمن عقد مؤتمر آخر (مؤتمر برلين) لتخفيف آثار معاهدة سان ستيفانو من ناحية، وإخافة روسيا بمنافستها بريطانيا، لكي تصرف روسيا النظر عن الحرب، واستطاع تحقيق مكاسب للدولة، وقللت البنود الخسائر في المعاهدة الأولى.

ودلت أحداث المعاهدتين على عبقرية السلطان عبد الحميد السياسية، التي تمثلت في إحداث النفور بين دولة روسيا ودولة ألمانيا أيضاً(٢).

يقول الإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» في مذكراته:

«جرى لي حديث مع أحد كبار القواد الذين ألحقوا بخدمة البلاد القيصرية في عهد «ألكسندر الثاني» قيصر روسيا عن العلاقات بين البلاطين الروسي والألماني وبين الجيشين والبلدين، فقلت لهذا القائد: إني أرى انقلاباً محسوساً في هذه العلاقات. فقال لي: الذنب في ذلك على مؤتمر برلين! تلك غلطة كبرى ارتكبها «بسمارك» فقد قضى على الصداقة القديمة التي كانت بيننا، وأزال الثقة بألمانيا من البلاط الروسي ومن الحكومة الروسية. وجعل الجيش يشعر بأنه جنى عليه جناية عظمى بعد الحرب الدموية التي خاض غمارها عام (١٨٧٧م)(٣).

- **مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م):**

حضر ذلك المؤتمر الدول الكبرى (إنكلترا، فرنسا، ألمانيا، والنمسا)، وجرى البحث في هذا المؤتمر تعديل معاهدة سان ستيفانو التي عقدت بين روسيا والدولة العثمانية، وذلك لمعارضة الدول المعنية لهذه المعاهدة لأنها لا تتفق مع

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٣.
(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٤٥.
(٣) انظر: مذكرة غليوم الثاني، ص ١٨، ١٩.

مصالحها الاستراتيجية. . واتفق المؤتمرون على تعديل معاهدة سان ستيفانو وعقدت معاهدة برلين والتي تناولت الشروط التالية:

١ ـ استقلال بلغاريا وتعديل في حدودها، وتتشكل في جنوب البلقان ولاية باسم الروملي الشرقي تكون تحت سيادة الدولة العثمانية سياسياً وعسكرياً، ويحكمها نصراني، يعين لمدة خمس سنوات باتفاق الدول، وتبقى قوة لروسيا في بلغاريا والروملي الشرقي وتحدد بخمسين ألف جندي.

٢ ـ تقدمت حدود اليونان قليلاً إلى الشمال مع العلم بأن اليونان لم تدخل في موضوع القتال، ولم تشمل معاهدة سان ستيفانو أي جزء منها.

٣ ـ ضم البوسنة والهرسك للنمسا.

٤ ـ ضم بسارابيا إلى روسيا بعد اقتلاعها من رومانيا، وتضم مقاطعة دوبروجية وبعض الجزء إلى رومانيا ومنحها الاستقلال التام.

٥ ـ استقلال الصرب والجبل الأسود.

٦ ـ ضم مدن قارص وردهان وباطوم لروسيا.

٧ ـ قرر المؤتمر الإبقاء على الغرامة الحربية التي قررتها معاهدة سان ستيفانو على الدولة العثمانية ومقدارها ٢٥٠ مليون ليرة ذهبية.

٨ ـ تعهد الباب العالي بأن يقبل بلا تمييز في الدين شهادة جميع رعاياه أمام المحاكم.

٩ ـ الموافقة على تحسين أوضاع النصارى في جزيرة كريت(١).

وكان المستشار الألماني بسمارك هو الذي دعا إلى عقد المؤتمر خشية أن يؤدي تصدي بريطانيا لروسيا إلى نشوب حرب أوروبية عامة وتهديد الاتحاد الألماني الذي جاهد كثيراً من أجل قيامه، فإنه دعا الدول العظمى إلى المؤتمر في برلين لمراجعة صلح سان ستيفانو وتسوية نتائج الحرب التركية الروسية(٢).

وقد ذكر بعض المؤرخين(٣) **أن في كواليس مؤتمر برلين عرض بسمارك تقسيم الإمبراطورية العثمانية على مذبح السلام الأوروبي، فعرض على بريطانيا مصر وعلى فرنسا تونس والشام وعلى النمسا البوسنة والهرسك وعلى روسيا**

---

(١) انظر الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٥.

(٢) انظر الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٥.

(٣) الدكتور إسماعيل ياغي، وأحمد مصطفى عبد الرحيم.

البوغازين (البسفور والدردنيل) وغير ذلك من أملاك السلطان. غير أن هذه العروض لم تدرج في مقررات المؤتمر[١].

وهكذا فإن مؤتمر برلين من المعالم البارزة لتدهور الإمبراطورية العثمانية التي أرغمت على التنازل عن مساحات واسعة من أملاكها. كما أن يسجل تعهد بريطانيا وفرنسا بالمحافظة على ممتلكات الدولة العثمانية. غير أن بريطانيا وفرنسا قد كشفتا عن نواياهما الاستعمارية، فقد احتلت فرنسا تونس عام (١٢٩٩هـ/ ١٨٨١م) نظير احتلال بريطانيا لقبرص، واحتلت مصر عام (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م) معلنة أن احتلالها مؤقت[٢].

وهكذا كانت النتيجة من الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا، ولمواجهة هذه الأوضاع المتردية كان على السلطان أن يتخذ لقب الخلافة لمواجهة التحديات الجديدة، وعمل على إنشاء الجامعة الإسلامية لكي يعمل على تكتل جميع المسلمين من حوله في الداخل والخارج.

ولا شك أن حركة الجامعة الإسلامية قد لاقت استحساناً وقبولاً لدى المسلمين الذين اعتقدوا أن ضعف الدولة العثمانية مرجعه ضعف الشعور الديني عند المسلمين، الأمر الذي دفع أعداء الإسلام للزحف على ديار الإسلام ونهبها بلداً تلو الآخر[٣].

❁ ❁ ❁

(١) انظر: في أصول التاريخ العثماني، ص ١٩٥.
(٢) انظر الدولة العثمانية، د. إسماعيل ياغي، ص ١٩٥.
(٣) المصدر السابق نفسه ١٩٦.

الفصل الثاني

الجامعة الإسلامية

لم تظهر فكرة الجامعة الإسلامية، في معترك السياسة الدولية إلا في عهد السلطان عبد الحميد، وبالضبط بعد ارتقاء السلطان عبد الحميد عرش الدولة العثمانية عام ١٨٧٦م، فبعد أن التقط السلطان عبد الحميد أنفاسه وجرد المتأثرين بالفكر الأوروبي من سلطاتهم، وتولى هو قيادة البلاد قيادة حازمة، اهتم السلطان عبد الحميد بفكرة الجامعة الإسلامية وقد تكلم في مذكراته عن ضرورة العمل على تدعيم أواصر الأخوة الإسلامية بين كل مسلمي العالم في الصين والهند وأواسط أفريقيا وغيرها، وحتى إيران وفي هذا يقول: (عدم وجود تفاهم مع إيران أمر جدير بالتأسف عليه، وإذا أردنا أن نفوّت الفرصة على الإنكليز وعلى الروس فإننا نرى فائدة تقارب إسلامي في هذا الأمر)[١]، وتحدث عن علاقة الدولة العثمانية بإنكلترا التي تضع العراقيل أمام الوحدة العثمانية، يقول عبد الحميد الثاني: (الإسلام والمسيحية نظرتان مختلفتان ولا يمكن الجمع بينهما في حضارة واحدة) لذلك يرى أن (الإنكليز قد أفسدوا عقول المصريين، لأن البعض أصبح يقدم القومية على الدين. ويظن أنه يمكن مزج حضارة مصر بالحضارة الأوروبية، وإنكلترا تهدف من نشر الفكر القومي في البلاد الإسلامية إلى هز عرشي... وأن الفكر القومي قد تقدم تقدماً ملموساً في مصر. والمثقفون المصريون أصبحوا من حيث لا يشعرون ألعوبة في يد الإنكليز، إنهم بذلك يهزون اقتدار الدولة الإسلامية ويهزون معها اعتبار الخلافة)[٢].

وقال عن السياسة الإنكليزية تجاه الخلافة: (قالت صحيفة ستاندرد الإنكليزية ما نصه:

(يجب أن تصبح الجزيرة العربية تحت الحماية الإنكليزية، ويجب على إنكلترا أن تسيطر على مدن المسلمين المقدسة)... إن إنكلترا تعمل لهدفين: إضعاف تأثير الإسلام وتقوية نفوذها.. لذلك أراد الإنكليز أن يكون الخديوي في مصر خليفة للمسلمين ولكن ليس هناك مسلم صادق واحد يقبل أن يكون الخديوي

(١) و(٢) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٢٣.

أميراً للمؤمنين لأنه بدأ دراسته في جنيف وأكملها في فيينا وتطبّع بطابع الكفار)[١].

وعندما ظهر اقتراح إنكلترا. (لإعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة المسلمين)[٢]. إعترف السلطان عبد الحميد الثاني بأنه لم يكن لديه الطاقة ولا القوة لمحاربة الدول الأوروبية.. ولكن الدول الكبرى كانت ترتعد من سلاح الخلافة، وخوفهم من الخلافة جعلهم يتفقون على إنهاء الدولة العثمانية)[٣]، و (أن الدولة العثمانية تضم أجناساً متعددة من أتراك وعرب وألبان وبلغار ويونانيين وزنوج وعناصر أخرى، ورغم هذا فوحدة الإسلام تجعلنا أفراد أسرة واحدة)[٤].

وعبَّر عبد الحميد الثاني عن ثقته في وحدة العالم الإسلامي بقوله: (يجب تقوية روابطنا ببقية المسلمين في كل مكان، يجب أن نقترب من بعضنا البعض أكثر وأكثر، فلا أمل في المستقبل إلا بهذه الوحدة، ووقتها لم يحن لكنه سيأتي. سيأتي اليوم الذي يتحد فيه كل المؤمنين وينهضون فيه نهضة واحدة ويقومون قومة رجل واحد وفيه يحطمون رقبة الكفار)[٥].

كانت فكرة الجامعة الإسلامية في نظر السلطان عبد الحميد يمكن أن تحقق أهدافاً منها:

- مواجهة أعداء الإسلام المثقفين بالثقافة الغربية، والذين توغلوا في المراكز الإدارية والسياسية الحساسة، في أجهزة الدول الإسلامية عموماً، وفي أجهزة الدولة العثمانية خصوصاً، وإيقافهم عند حدِّهم، عندما يجدون أن هناك سداً إسلامياً ضخماً وقوياً يقف أمامهم.
- محاولة إيقاف الدول الاستعمارية الأوروبية وروسيا، عند حدها عندما تجد أن المسلمين قد تكتلوا في صف واحد، وقد فطنوا إلى أطماعهم الاستعمارية ووقفوا ضدها بالوحدة الإسلامية.
- إثبات أن المسلمين يمكن أن يكونوا قوة سياسية عالمية، يحسب لها حسابها في مواجهة الغزو الثقافي والفكري والعقدي الروسي ـ الأوروبي النصراني.
- تأخذ الوحدة الإسلامية الجديدة دورها في التأثير على السياسة العالمية[٦].
- تستعيد الدولة العثمانية بوصفها دولة الخلافة قوتها وبذلك يمكن إعادة تقويتها،

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤.

(٢) و(٣) و(٤) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٢٤.

(٥) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٢٤.

(٦) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٦٨.

وتجهيزها بالأجهزة العلمية الحديثة، في الميادين كافة، وبذلك تستعيد هيبتها وتكون درساً تاريخياً. يقول: «إن العمل على تقوية الكيان السياسي والاجتماعي الإسلامي، أفضل من إلقائه أرضاً، وتكوين كيان غريب فكرياً واجتماعياً على نفس الأرض»(١).

- إحياء منصب الخلافة، ليكون أداة قوية، وليس صورياً كما حدث لفترة، وبذلك لا يكون السلطان وحده فقط هو الذي يقف في مواجهة أطماع الغرب وعملائه في الداخل، وإنما هي وحدة شعورية بين شعوب المسلمين جميعاً، يكون هو الرمز والموجّه والموحّد.

وإلى هذا أشار المؤرخ البريطاني (آرنولد توينبي) في قوله: «إن السلطان عبد الحميد، كان يهدف من سياسته الإسلامية، تجميع مسلمي العالم تحت راية واحدة، وهذا لا يعني إلا هجمة مضادة، يقوم بها المسلمون ضد هجمة العالم الغربي التي استهدفت عالم المسلمين»(٢).

ولذلك استخدم السلطان عبد الحميد، كل الإمكانيات المتاحة في ذلك الوقت، من اتخاذ الدعاة من مختلف جنسيات العالم الإسلامي، من العلماء والمبرزين، في مجالات السياسة، والدعاة الذين يمكن أن يذهبوا إلى أرجاء العالم الإسلامي المختلفة، للالتقاء بالشعوب الإسلامية وفهم ما عندهم وإبلاغهم بآراء وتوجيهات السلطان الخليفة ونشر العلوم الإسلامية، ومراكز الدراسات الإسلامية، في الداخل والخارج، وطبع الكتب للدولة أو ما يسمى بالتعبير المعاصر «تعريب» الدولة العثمانية، والعناية بالمساجد والجوامع من تجديد وترميم وبناء الجديد منها، والقيام بحملات تبرع لإحياء المساجد في العالم، والاهتمام بالمواصلات لربط أجزاء الدولة العثمانية، واستمالة زعماء القبائل العربية، وإنشاء مدرسة في عاصمة الخلافة، لتعليم أولاد رؤساء العشائر والقبائل، وتدريبهم على الإدارة، واستمالة شيوخ الطرق الصوفية، والاستفادة من الصحافة الإسلامية في الدعاية للجامعة الإسلامية، واتخاذ بعض الصحف وسيلة للدعاية لهذه الجامعة، والعمل على تطوير النهضة العلمية والتقنية في الدولة العثمانية، وتحديث الدولة فيما هو ضروري(٣).

ولقد التفت مجموعة من العلماء ودعاة الأمة الإسلامية إلى دعوة الجامعة الإسلامية من أمثال جمال الدين الأفغاني، ومصطفى كامل من مصر، وأبي الهدي

---

(١) و(٢) السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٦٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٧٢.

الصيادي من سوريا، وعبد الرشيد إبراهيم من سيبريا، والحركة السنوسية في ليبيا وغيرها.

أولاً

جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد

أيد جمال الدين الأفغاني دعوة السلطان عبد الحميد إلى الجامعة الإسلامية، وقدم مشروعات أكبر بكثير من طموح السلطان، ولم يكن السلطان يأمل في أكثر من وحدة هدف بين الشعوب الإسلامية، ووحدة حركة بينها، وهي وحدة شعورية عملية، في نفس الوقت، تكون الخلافة فيها ذات هيبة وقوة، لكن الأفغاني عرض على السلطان مشروعاً، يرمي إلى توحيد أهل السنة مع الشيعة وكانت نظرة السلطان عبد الحميد لا ترمي في هذا الصدد أكثر من توحيد الحركة السياسية بين الفريقين لمواجهة الاستعمار العالمي[١].

واستفاد السلطان عبد الحميد كثيراً من الأفغاني، في الدعاية إلى الجامعة الإسلامية، رغم الاختلاف بين فكر السلطان وفكر الأفغاني.

ومن أسباب الاختلاف:

١ ـ إيمان الأفغاني بقضية وحدة المسلمين، وتأييده في نفس الوقت للثوار ضد السلطان عبد الحميد، من القوميين الأتراك والعثمانيين عامة.

٢ ـ دعوة الأفغاني لوحدة الشعوب الإسلامية، بحيث تكون كالبنيان الواحد، وبقلب واحد، في مواجهة الدول الأوروبية الرامية إلى تقسيم الدولة العثمانية العاملة على انهيارها، وفي نفس الوقت، لم يتعرض الأفغاني للاستعمار الفرنسي، ولو بكلمة تنديد، في وقت احتاج فيه السلطان عبد الحميد إلى مقاومة الفرنسيين في شمال أفريقيا[٢].

٣ ـ تنديد جمال الدين بالاستعمار الإنكليزي في حين يذكر السلطان عبد الحميد أن المخابرات العثمانية، حصلت على خطة أعدت في وزارة الخارجية الإنكليزية، واشترك فيها جمال الدين الأفغاني وبلنت الإنكليزي وتقضي هذه الخطة بإقصاء الخلافة عن السلطان عبد الحميد وعن العثمانيين عموماً، وبلنت هذا سياسي إنكليزي يعمل في وزارة الخارجية الإنكليزية، ومؤلف كتاب

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٢.

«مستقبل الإسلام»، ودعا فيه صراحة إلى العمل على نزع الخلافة من العثمانيين، وتقليدها للعرب. وقد رد مصطفى كامل باشا زعيم الحركة الوطنية في مصر على «بلنت» في كتاب مصطفى كامل باشا المشهور (المسألة الشرقية) قائلاً: (وبالجملة فإن حضرة مؤلف كتاب مستقبل الإسلام يرى ـ وما هو إلا مترجم عن آمال بني جنسه ـ أن الأليق بالإسلام أن ينصب إنكلترا دولة له بل إن الخليفة يجب أن يكون إنكليزياً)[١].

٤ ـ رغم الأطماع الروسية والحروب الروسية، ضد الدولة العثمانية واقتطاع الروس لأجزاء من الأراضي العثمانية، فقد كان موقف السيد جمال الدين الأفغاني من مبدأ التوسع الروسي غريباً على مفهوم الجامعة الإسلامية، لأنه يعترف بما للروس من مصالح حيوية واستراتيجية في الهند، تدفعهم لاحتلالها، وأنه ليس لدى الأفغاني اعتراض على هذا الاحتلال إذا حدث، بل ينصح الروس باتباع أسلم السبل وأسهلها لتنفيذه، وذلك بأن يستعينوا بدولة فارس، وبلاد الأفغان، لفتح أبواب الهند، شريطة أن تسهمهما في الغنيمة وتشركهما في المنفعة.

٥ ـ الخلاف العقدي الذي ظهر بين العلماء في استنابول وبين جمال الأفغاني، وظهور كتاب الشيخ (خليل فوزي الفيليباوي) المُعَنْون (السيوف القواطع) للرد على عقيدة الأفغاني وسكوت الأفغاني عن هذا، وعدم دفاعه عن نفسه، والكتاب باللغة العربية، ومترجم وقتها إلى اللغة التركية.

مالَ السلطان عبد الحميد، إلى تركيز كل السلطات في يده بعد أن ذاق الأمرين من وزرائه وضباط جيشه وصدوره العظام المتأثرين بالفكر الغربي، والذين هدفوا إلى إقامة ديمقراطية أوروبية، تضم مجلساً منتخباً يمثل كل شعوب الدولة العثمانية، ومعارضة السلطان عبد الحميد لهذا بحجة أن عدد النواب المسلمين سيكون حوالي نصف العدد الكلي للبرلمان. في حين أن جمال الدين الأفغاني يميل إلى الديمقراطية، وعدم تركيز السلطات في يد شخص واحد بعينه، ويميل الأفغاني إلى الحرية في التعبير عن الرأي[٢].

ولقد ذكر السلطان عبد الحميد في مذكراته بأن جمال الدين الأفغاني مهرج وله علاقة بالمخابرات الإنكليزية: (وقعت في يدي خطة أعدها في وزارة الخارجية الإنكليزية مهرج اسمه جمال الدين الأفغاني وإنكليزي يُدعى بلنت قالا فيها بإقصاء الخلافة عن

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٨٣.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٨٤.

الأتراك. واقترحا على الإنكليز إعلان الشريف حسين أمير مكة خليفة على المسلمين.

كنت أعرف جمال الدين الأفغاني عن قرب. كان في مصر، وكان رجلاً خطيراً. اقترح عليّ ذات مرة ـ وهو يدّعي المهدية ـ أن يثير جميع مسلمي آسيا الوسطى، وكنت أعرف أنه غير قادر على هذا. وكان رجل الإنكليز، ومن المحتمل جداً أن يكون الإنكليز قد أعدوا هذا الرجل لاختباري فرفضت فوراً، فاتحد مع بلنت.

استدعيته إلى استانبول عن طريق أبي الهدي الصيادي الحلبي، الذي كان يلقى الاحترام من كل البلاد العربية.

قام بالتوسط في هذا كل من منيف باشا، حامي الأفغان القديم، والأديب الشاعر عبد الحق حامد. جاء جمال الدين الأفغاني إلى استانبول، ولم أسمح له مرة أخرى بالخروج منها...)[1].

أما رأي جمال الدين الأفغاني في السلطان عبد الحميد فإنه يقول: (إن السلطان عبد الحميد لو وزن مع أربعة من نوابغ رجال العصر لرجحهم ذكاء ودهاء وسياسة، خصوصاً في تسخير جليسه، ولا عجب إذ رأيناه يذلل لك ما يقام لملكه من الصعاب من دول الغرب، ويخرج المناوئ له من حضرته راضياً عنه وعن سيرته وسيره، مقتنعاً بحجته سواء في ذلك الملك والأمير والوزير والسفير...)[2].

وقال: (ورأيته يعلم دقائق الأمور السياسية ومرامي الدول الغربية، وهو معد لكل هوة تطرأ على الملك، مخرجاً وسلماً، وأعظم ما أدهشني، ما أعده من خفي الوسائل وأمضى العوامل، كي لا تتفق أوروبا على عمل خطير في الممالك العثمانية، ويريها عياناً محسوساً أن تجزئة السلطنة العثمانية لا يمكن إلا بخراب يعم الممالك الأوروبية بأسرها)[3].

وقال: (أما ما رأيته من يقظة السلطان ورشده وحذره وإعداده العدة اللازمة لإبطال مكائد أوروبا وحسن نواياه واستعداده للنهوض بالدولة، الذي فيه نهضة المسلمين عموماً، فقد دفعني إلى مد يدي له فبايعته بالخلافة والملك، عالماً علم اليقين، أن الممالك الإسلامية في الشرق لا تسلم من شراك أوروبا، ولا من السعي وراء إضعافها وتجزئتها، وفي الأخير ازدراؤها واحدة بعد أخرى، إلا بيقظة وانتباه عمومي وانضواء تحت راية الخليفة الأعظم...)[4].

(١) انظر: مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٤٨.

(٢) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، ص ١٣٧.

(٣) و (٤) انظر: جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، ص ١٣٧.

إنّ جمال الدين الأفغاني أمره محير فهناك من يدافع عنه، وهناك من يتهمه بالعمالة والانضمام إلى المحافل الماسونية، فمثلاً، كتاب (دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام) للمؤلف مصطفى عبد اللطيف غزال يرى أنه كان من عوامل الهدم في الأمة في تاريخها الحديث، أما كتاب (جمال الدين الأفغاني المصلح المفترى عليه)، للدكتور محسن عبد الحميد فيراه من المصلحين!!

ثانياً

الطرق الصوفية

استهدف السلطان عبد الحميد الطرق الصوفية في كسب ولائها للدولة العثمانية، والدعوة إلى فكرة الجامعة الإسلامية، واستطاع أن يكون رابطة بين مقر الخلافة ـ استانبول ـ وبين تكايا ومراكز تجمع الطرق الصوفية في كل أنحاء العالم الإسلامي، واتخذ من حركة التصوف في العالم الإسلامي وسيلة للدعاية للجامعة الإسلامية، كما اتخذ من الزهاد من غير المتصوفة وسيلة أيضاً للدعوة لفكر التجمع الإسلامي، وتكونت في عاصمة الخلافة لجنة مركزية، مكونة من العلماء وشيوخ الطرق الصوفية حيث عملوا مستشارين للسلطان في شؤون الجامعة الإسلامية: الشيخ (أحمد أسعد) وكيل الفراشة الشريفة في الحجاز، والشيخ (أبو الهدي الصيادي) شيخ الطريقة الرفاعية، والشيخ (محمد ظافر الطرابلسي) شيخ الطريقة المدنية، كانوا أبرز أعضاء هذه اللجنة المركزية للجامعة الإسلامية، وكان معهم غيرهم، وكانت الدولة العثمانية تنتشر فيها هيئات فرعية في جميع الأقاليم خاضعة لهذه اللجنة، ومن أهمها التي كانت في مكة تحت إشراف شريف مكة ومهمتها نشر مفهوم الجامعة الإسلامية في موسم الحج بين الحجاج، وأخرى في بغداد، وتقوم بنفس المهمة بين أتباع الطريقة القادرية، الذين يأتون بكثرة من الشمال الإفريقي لزيارة الشيخ عبد القادر الجيلاني مؤسس الطريقة، وقد قدرت أعداد هؤلاء في إحدى السنوات بحوالي (٢٥,٠٠٠) نسمة. وكانت لجنة بغداد تعمل على تهيئة القادمين لحمل فكرة الجامعة الإسلامية، ولمقاومة الاستعمار الفرنسي في شمال أفريقيا ووصفت المخابرات الفرنسية ما قام به هؤلاء القادمون من أهل الشمال الإفريقي من بغداد، من أعمال ضد الفرنسيين وضد الاستعمار الفرنسي بأنها: (**استفزازات بعض رجال الدين التابعين للطريقة القادرية**)[١].

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٩٦.

وللجنة المركزية للجامعة الإسلامية في استنابول، فرع إفريقي يعمل في شمال أفريقيا، وهو يعمل في سرية تامة، مهمته تنسيق العمل بين الجماعات الدينية هناك، لمقاومة الاحتلال الفرنسي، وهذه الجماعات هي: (الشاذلية والقادرية والمدنية)[١].

وبلغ من نفوذ هذه الحركة وهيبتها: أن وصفتها إدارة المخابرات الفرنسية في شمال أفريقيا بقولها: (ويمكن للسلطان عبد الحميد ـ بصفته رئيساً للجامعة الإسلامية ـ أن يجمع من خلال ارتباطاته الوثيقة بالجماعات الدينية في شمال أفريقيا جيشاً منظماً، يتمكن ـ إذا لزم الأمر ـ أن يقاوم به أي قوة أجنبية)[٢].

ولم تستطع المخابرات الفرنسية أن تكشف وسائل التنظيم للطرق الصوفية التابعة للخلافة الإسلامية في شمال أفريقيا، وكل ما استطاعت عمله، هو محاولتها إضعاف هيبة السلطان عبد الحميد في نفوس مسلمي شمال أفريقيا، ومحاولة هذه السلطات ضرب سياسة الجامعة الإسلامية. وذلك باتباع سياسة فرنسية تقوم على:

١ ـ إغراء بعض شيوخ الطرق الصوفية بالمال وبالمركز، للوقوف مع فرنسا وسياستها في شمال أفريقيا.

٢ ـ منع الحجيج من الحج، حتى لا يلتقوا بدعاة الجامعة الإسلامية بالسبل المنسبة. بمعنى: عدم إعلان منع الحج، واتخاذ أسباب صحية لتخويف الناس منه، مثل نشر أخبار عن وجود الكوليرا[٣]، وأرسل السلطان عبد الحميد مجموعة من الزهاد والمتصوفة إلى الهند، لتعمل على القضاء على المحاولات الإنكليزية الداعية إلى سلب الخلافة من العثمانيين، لإعطاءها إلى العرب. واتصلت هذه القافلة أيضاً ببعض حكام الجزيرة العربية لا سيما الحجاز[٤].

وهناك اتصالات بين السلطان عبد الحميد بوصفه رئيساً للجامعة الإسلامية، وخليفة المسلمين، وسلطان الدولة العثمانية، وبين تجمعات الطرق الصوفية وشيوخها في تركستان، وفي جنوب أفريقيا، وفي الصين، بعضها كشف عنها النقاب، وأكثرها لم تكشف عنه الوثائق بشكل كافٍ بعد[٥].

لقد نجح السلطان عبد الحميد الثاني في جمع الطرق الصوفية إلا أنه فضّل السكوت عن كثير من انحرافاتها العقيدية، حيث إن الطرق الصوفية في تلك المرحلة انحرفت عن كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ إلا ما رحم اللّه، ولذلك أضعفت

---

(١) و(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٧.

(٣) و (٤) و (٥) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٩٨.

الأمة وساهمت في سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية السنية، وسنبين ذلك بإذن اللّه تعالى في أسباب السقوط.

ثالثاً

تعريب الدولة

كان السلطان عبد الحميد يرى ـ منذ أن تولى الحكم ـ ضرورة اتخاذ اللغة العربية لغة رسمية للدولة العثمانية. وفي هذا يقول: (اللغة العربية لغة جميلة. ليتنا كنا اتخذناها لغة رسمية للدولة من قبل. لقد اقترحت على خير الدين باشا ـ التونسي ـ عندما كان صدراً أعظم أن تكون اللغة العربية هي اللغة الرسمية، لكن سعيد باشا كبير أمناء القصر اعترض على اقتراحي هذا. وقال: (إذا عرّبنا الدولة فلن يبقى ـ للعنصر التركي ـ شيء بعد ذلك).

كان (سعيد باشا) رجلاً فارغاً، وكلامه فارغاً. ما دخل هذه المسألة بالعنصر التركي؟! المسألة غير هذا تماماً. هذه مسألة، وتلك مسألة أخرى، اتخاذنا اللغة العربية لغة رسمية للدولة من شأنه ـ على الأقل ـ أن يزيد ارتباطنا بالعرب)[١].

إن السلطان عبد الحميد الثاني كان يشكو وخصوصاً في بداية حكمه من أن الوزراء وأمناء القصر السلطاني، كانوا يختلفون عنه في التفكير، وأنهم متأثرون بالغرب وبالأفكار القومية والغربية، وكانوا يشكلون ضغطاً على القصر، سواء في عهد والده السلطان عبد المجيد، وفي عهد عمه السلطان عبد العزيز، أو في عهده هو. لم يقتصر الأمر في معارضة اقتراح السلطان عبد الحميد بتعريب الدولة العثمانية على الوزراء المتأثرين بالغرب فقط: بل تعداه إلى معارضة من بعض علماء الدين[٢].

إن من الأخطاء التي وقعت فيها الدولة العثمانية عدم تعريب الدولة وشعبها بلغة القرآن الكريم والشرع الحكيم.

يقول الأستاذ محمد قطب:

(ولو تصورنا أن دولة الخلافة قد استعربت، وتكلمت اللغة العربية التي نزل بها هذا الدين فلا شك أن عوامل الوحدة داخل الدولة كانت تصبح أقوى وأقدر على مقاومة عبث العابثين، فضلاً عما يتيحه تعلم العربية من المعرفة الصحيحة

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٩٩.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٠٠.

بحقائق هذا الدين من مصادره المباشرة: كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، مما كان الحكام والعامة كلاهما في حاجة إليه، على الرغم من كل ما ترجم إلى التركية وما ألف أصلاً بالتركية حول هذا الدين)[١].

رابعاً

مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة ومحاربته للسفور

عندما تولى السلطان عبد الحميد السلطنة رأى أن المدارس، ونظام التعليم، أصبح متأثراً بالفكر الغربي، وأن التيار القومي هو التيار السائد في هذه المدارس، فتدخل في شؤونها ووجّهها ـ من خلال نظرته السياسية ـ إلى الدراسات الإسلامية. فأمر بالآتي:

* استبعاد مادة الأدب والتاريخ العام من البرامج الدراسية لكونها وسيلة من وسائل الأدب الغربي، والتاريخ القومي للشعوب الأخرى مما يؤثر على أجيال المسلمين سلباً.
* وضع دروس الفقه والتفسير والأخلاق في برامج الدراسة.
* الاقتصار فقط على تدريس التاريخ الإسلامي بما فيه العثماني.

وجعل السلطان عبد الحميد مدارس الدولة تحت رقابته الشخصية ووجهها لخدمة الجامعة الإسلامية[٢].

واهتم بالمرأة، وجعل للفتيات داراً للمعلمات ومنع اختلاطهنّ بالرجال، وفي هذا يذكر السلطان في معرض الدفاع عن نفسه أمام اتهام جمعية الاتحاد والترقي له بأنه عدو العقل والعلم بأنه: (لو كنت عدواً للعقل والعلم فهل كنت أفتح الجامعة؟ لو كنت هكذا عدواً للعلم، فهل كنت أنشئ لفتياتنا اللواتي لا يختلطن بالرجال، داراً للمعلمات؟!)[٣].

وقام بمحاربة سفور المرأة في الدولة العثمانية، وهاجم تسرب أخلاق الغرب، إلى بعض النساء العثمانيات، ففي صحف استانبول في **٣ أكتوبر ١٨٨٣م**، ظهر بيان حكومي موجه إلى الشعب يعكس وجهة نظر السلطان شخصياً في رداء المرأة.

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٣.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٠١.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٩٩.

يقول هذا البيان:

(إن بعض النساء العثمانيات اللائي يخرجن إلى الشوارع في الأوقات الأخيرة، يرتدين ملابس مخالفة للشرع. وإن السلطان قد أبلغ الحكومة بضرورة اتخاذ التدابير اللازمة للقضاء على هذه الظاهرة. كما أبلغ السلطان الحكومة أيضاً بضرورة عودة النساء إلى ارتداء الحجاب الشرعي الكامل بالنقاب إذا خرجن إلى الشوارع). وبناءً على هذا فقد اجتمع مجلس الوزراء واتخذ القرارات التالية:

* تعطى مهلة شهر واحد يمنع بعده سير النساء في الشوارع إلا إذا ارتدين الحجاب الإسلامي القديم. وينبغي أن يكون هذا الحجاب خالياً من كل زينة ومن كل تطريز.
* يلغى ارتداء النساء النقاب المصنوع من القماش الخفيف أو الشفاف. وبالتالي ضرورة العودة إلى النقاب الشرعي الذي لا يبين خطوط الوجه.
* على الشرطة ـ بعد مضي شهر على نشر هذا البيان ـ ضمان تطبيق ما جاء فيه من قرارات بشكل حاسم، وعلى قوات الضبطية التعاون مع الشرطة في هذا.
* صدَّق السلطان على هذا البيان بقراراته الحكومية.
* ينشر هذا البيان في الصحف ويعلق في الشوارع)[(١)].

وفي اليوم التالي لنشر هذا البيان، أي في ٤ أكتوبر قالت جريدة (وَقِتْ) الصادرة في استانبول: (إن المجتمع العثماني عموماً يصوِّب هذا القرار ويراه نافعاً)[(٢)].

وكان السلطان عبد الحميد يرى (أن المرأة لا تتساوى مع الرجل من حيث القوامة).

ويقول: (ما دام القرآن يقول بهذا، فالمسألة منتهية ولا داعي للتحدث عن مساواة المرأة بالرجل).

ويرى: (إن فكرة هذه المساواة إنما جاءت من الغرب)[(٣)].

كما كان يدافع عن تعدد الزوجات، في وقت كان الإعلام العثماني يثير هذه القضية معترضاً عليها. ويقول السلطان: (لماذا يعترض بعض المثقفين على هذا

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٠٠.
(٢) انظر: موسوعة أتاتورك (١/٥٩، ٦٠).
(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٠٠.

الأمر، ولماذا لا يعترضون على وجوده في أماكن أخرى غير الدولة العثمانية، في بعض أماكن أوروبا وأمريكا؟) ويؤكد السلطان: إن مبدأ تعدد الزوجات مباح في الإسلام فماذا يعني الاعتراض عليه؟)[١].

لقد كان السلطان عبد الحميد مع تعليم المرأة ولذلك أنشأ داراً للمعلمات، لتخريج معلمات للبنات، كما كان ضد الاختلاط بين الرجل والمرأة وضد سفور المرأة، ولم يكن في عهده للمرأة رأي في شؤون الدولة مهما كانت هذه الشؤون، وإنما دور المرأة في البيت وتربية الأجيال، وكان يعامل المرأة معاملة كريمة نادرة، فهذه زوجة أبيه التي احتضنته وقامت بتربيته، عندما تولى السلطان العرش، أعلن زوجة أبيه التي ربته (والدة السلطان) بمعنى الملكة في المفهوم الحديث، وكانت الملكة في القصر العثماني، هي أم السلطان وليست زوجته كما في الدول الأخرى. ومع كل هذا، ففي اليوم التالي لتنصيب السلطان عبد الحميد على عرش الدولة العثمانية، قابل زوجة أبيه وهي التي أحبها حباً بالغاً، وقبل يدها وقال لها:

(بحنانك لم أشعر بفقد أمي. وأنت في نظري أمي لا تفترقين عنها. ولقد جعلتك السلطانة الوالدة. يعني أن الكلمة في هذا القصر لك. لكني أرجو ـ وأنا مصرٌ على هذا الرجاء ـ ألا تتدخلي بأي شكل من الأشكال في أي عمل من أعمال الدولة، كَبُرَ أم صَغُر)[٢].

خامساً

مدرسة العشائر

أنشأ السلطان عبد الحميد في استانبول، باعتبارها مقر الخلافة ومركز السلطنة (مدرسة العشائر العربية) من أجل تعليم وإعداد أولاد العشائر العربية، من ولايات حلب، وسوريا، وبغداد، والبصرة، والموصل، وديار بكر، وطرابلس الغرب واليمن، والحجاز، وبنغازي والقدس، ودير الزور.

وكانت مدة الدراسة في مدرسة العشائر العربية في استانبول خمس سنوات، وهي داخلية، تتكفل الدولة العثمانية بكل مصاريف الطلاب، ولكل طالب «إجازة صلة رحم» وهي إجازة مرة كل سنتين. وسفر الطالب فيها على نفقة الدولة.

---

(١) المصدر السابق، ص ١٠١.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٩٨.

*** وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في استانبول كان كالآتي:**

السنة الأولى: القرآن الكريم ـ الأبجدية ـ العلوم الدينية ـ القراءة التركية ـ إملاء ـ تدريب عسكري.

السنة الثانية: القرآن الكريم ـ التجويد ـ العلوم الدينية ـ الإملاء ـ الحساب ـ القراءة التركية ـ تحسين الخط ـ تدريب عسكري.

السنة الثالثة: القرآن الكريم ـ التجويد ـ العلوم الدينية ـ الإملاء ـ حسن الخط ـ الحساب ـ الجغرافيا ـ الفرنسية ـ التدريب.

السنة الرابعة: القرآن الكريم ـ التجويد ـ العلوم الدينية ـ الصرف العربي ـ اللغة الفارسية ـ الكتابة والنحو التركي ـ الجغرافيا ـ الحساب ـ حسن الخط الفرنساوي ـ التدريب.

السنة الخامسة: القرآن الكريم ـ التجويد ـ العلوم الدينية ـ النحو العربي ـ اللغة الفارسية ـ التاريخ العثماني ـ القواعد العثمانية ـ الكتابة والقراءة التركية ـ المكالمة التركية ـ الجغرافيا ـ الحساب ـ الهندسة ـ حسن الخط ـ المعلومات المتنوعة ـ حفظ الصحة ـ أصول إمساك الدفاتر ـ اللغة الفرنسية ـ حسن الخط الفرنساوي ـ الرسم ـ التدريب[١].

وكان المتخرجون من هذه المدرسة، يدخلون المدارس العسكرية العالمية، ويحصلون بعد ذلك على رتب عالية. كما يمكنهم كذلك أن يدخلوا المدرسة الملكية ـ وهي مدنية ـ يدرسون فيها سنة ويحصلون بعدها على رتبة قائمقام، ثم يعودون إلى بلادهم[٢].

كما أنشأ السلطان عبد الحميد (معهد تدريب الوعاظ والمرشدين) الذي أقيم لإعداد الدعاة للدعوة الإسلامية، وللجامعة الإسلامية، ثم يتخرجون فينطلقون إلى مختلف أرجاء العالم الإسلامي يدعون للإسلام، وللخلافة، ويدعون للجامعة الإسلامية[٣].

ولقد كانت نظرة السلطان عبد الحميد بعيدة وثاقبة ولذلك اهتم بمسلمي الصين.

خرجت الصحافة في استانبول، بخبر مفاده أن عدداً من مسلمي الصين

(١) انظر: تاريخ التربية التركية، عثمان أركين، ص ٦١٤، ٦١٥، ١١٨٠، ١١٨٢ على التوالي.
(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٠٢.
(٣) انظر: الانقلاب العثماني، مصطفى طوران، ص ٣٧.

متحمسون، يحبون العلم ويرغبون الاستفادة من المعارف الإسلامية، وأن لديهم مؤسسات تعليمية ومدارس، وأن في بكين وحدها ثمانية وثلاثين مسجداً وجامعاً، يؤدي المسلمون فيها الصلاة، ويدعون فيها لخليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني، وأن خطبة الجمعة في مساجد وجوامع بكين تُقرأ باللغة العربية، ثم تترجم إلى اللغة الصينية، وأن الدعاء للسلطان عبد الحميد بصفته خليفة المسلمين لا يقتصر على بكين فقط، بل يمتد إلى كل مساجد الصين وجوامعه[(١)].

تأسست في بكين ـ عاصمة الصين ـ جامعة أطلق عليها المسلمون الصينيون اسم (دار العلوم الحميدية) نسبة إلى السلطان الخليفة عبد الحميد الثاني، أو بتعبير السفير الفرنسي في استانبول اسم (الجامعة الحميدية في بكين) وذلك في تقرير له إلى وزارة خارجيته في باريس.

وقد حضر افتتاح هذه الجامعة الآلاف من المسلمين الصينيين. وحضره أيضاً مفتي المسلمين في بكين، والكثير من علماء المسلمين هناك.

وفي مراسم الافتتاح، ألقيت الخطبة باللغة العربية، ودعا الخطيب للسلطان الخليفة عبد الحميد. وقام مفتي بكين بترجمة الخطبة والدعاء إلى اللغة الصينية. و (بكى أغلب المسلمين الحاضرين بكاءً حاراً بدافع فرحتهم) و (إن مسلمي الصين مترابطون فيما بينهم ترابطاً واضحاً برباط الدين المتين. وإن إيراد الخطبة باللغة العربية لغة المسلمين الدينية، ورفع علم الدولة العثمانية على باب هذه الجامعة، قد أثر تأثيراً بالغاً في هؤلاء الناس الطيبي القلب، وحرك الدموع في أعينهم)[(٢)].

سادساً

خط سكة حديد الحجاز

عمل السلطان عبد الحميد على كسب الشعوب الإسلامية عن طريق الاهتمام بكل مؤسساتها الدينية والعلمية والتبرع لها بالأموال والمنح ورصد المبالغ الطائلة لإصلاح الحرمين، وترميم المساجد وزخرفتها، وأخذ السلطان يستميل إليه مسلمي العرب بكل الوسائل فكوّن له من العرب حرساً خاصاً وعيّن الموالين له منهم في وظائف كبرى منهم (عزت باشا العابد) ـ من أهل الشام ـ الذي نجح في أن ينال أكبر حظوة عند السلطان عبد الحميد وأصبح مستشاره في الشؤون العربية. وقد لعب دوراً هاماً في مشروع سكة حديد الحجاز الممتدة من دمشق إلى المدينة

(١) انظر: جريدة ترجمان حقيقة رسالة من الصين ٢٦/ ١٢/ ١٣٢٥هـ.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٠٥.

المنورة، وهو بهذا المشروع الذي اعتبره السلطان عبد الحميد وسيلة من الوسائل التي أدت لإعلاء شأن الخلافة ونشر فكرة الجامعة الإسلامية.

وأبدى السلطان عبد الحميد اهتماماً بالغاً بإنشاء الخطوط الحديدية في مختلف أنحاء الدولة العثمانية مستهدفاً من ورائها تحقيق ثلاثة أغراض هي:

١ ـ ربط أجزاء الدولة المتباعدة مما ساعد على نجاح فكرة الوحدة العثمانية والجامعة الإسلامية والسيطرة الكاملة على الولايات التي تتطلب تقوية قبضة الدولة عليها.

٢ ـ إجبار تلك الولايات على الاندماج في الدولة والخضوع للقوانين العسكرية التي تنص على وجوب الاشتراك في الدفاع عن الخلافة بتقديم المال والرجال.

٣ ـ تسهيل مهمة الدفاع عن الدولة في أية جبهة من الجبهات التي تتعرض للعدوان، لأن مد الخطوط الحديدية ساعد على سرعة توزيع القوات العثمانية وإيصالها إلى الجبهات[١].

وكانت سكك حديد الحجاز من أهم الخطوط الحديدية التي أنشئت في عهد السلطان عبد الحميد، ففي سنة ١٩٠٠م بدأ بتشييد خط حديدي من دمشق إلى المدينة، للاستعاضة به عن طريق القوافل الذي كان يستغرق من المسافرين حوالي أربعين يوماً، وطريق البحر الذي يستغرق حوالي اثني عشر يوماً من ساحل الشام إلى الحجاز، وكان يستغرق من المسافرين أربعة أو خمسة أيام على الأكثر، ولم يكن الغرض من إنشاء هذا الخط مجرد خدمة حجاج بيت الله الحرام وتسهيل وصولهم إلى مكة والمدينة، وإنما كان السلطان عبد الحميد يرمي من ورائه أيضاً إلى أهداف سياسية وعسكرية، فمن الناحية السياسية خلق المشروع في أنحاء العالم الإسلامي حماسة دينية كبيرة، إذ نشر السلطان على المسلمين في جميع أنحاء الأرض بياناً يناشدهم فيه المساهمة بالتبرع لإنشاء هذا الخط[٢]، وقد افتتح السلطان عبد الحميد قائمة التبرعات بمبلغ (خمسين ألفاً ذهباً عثمانياً من جيبه الخاص) وتقرر دفع (مائة ألف) ذهباً عثمانياً من صندوق المنافع، وأسست الجمعيات الخيرية وتسابق المسلمون من كل جهة للإعانة على إنشائها بالأنفس والأموال)[٣].

وتبرع للمشروع الشخصيات الهامة في الدولة، مثل الصدر الأعظم ووزير الحربية (حسين باشا) ووزير التجارة والأشغال (ذهني باشا)، ورئيس لجنة المشروعات (عزت باشا).

---

(١) و(٢) انظر: صحوة الرجل المريض، د. موفق بني المرجَة، ص ١١٣.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٢٢.

وتبارى موظفو الشركات في التبرع، مثل: موظفو شركة البواخر العثمانية. وكذلك موظفو الدولة العموميون، والولايات مثل: ولاية بيروت ودمشق وحلب وبورصة وغيرها.

وشارك القصر الحاكم في مصر، في حملة التبرعات، وشكلت في مصر لجنة الدعاية للمشروع وجمع التبرعات له برئاسة (أحمد باشا المنشاوي). كما شاركت الصحافة المصرية في حملة سكة حديدة الحجاز بحماس ومثال على ذلك جريدة المؤيد. وجمعت جريدة (اللواء) المصرية تبرعات للمشروع بلغت ـ حتى عام ١٩٠٤م ـ ثلاثة آلاف ليرة عثمانية. وكان يرأسها مصطفى كامل باشا، كما جمع (علي كامل) مبلغ (٢٠٠٠) ليرة عثمانية للمشروع حتى عام ١٩٠١م.

وأسهم في هذه الحملة، جريدة (المنار) وجريدة (الرائد المصري) وشكلت لجان تبرع للمشروع في كل من القاهرة والإسكندرية وغيرهما من مدن مصر.

وكان مسلمو الهند أكثر مسلمي العالم حماساً وعاطفة وتبرعاً للمشروع. وقد تبرع أمير حيدرأباد بإنشاء محطة المدينة المنورة في المشروع، كما تبرع شاه إيران بمبلغ (٥٠,٠٠٠) ليرة عثمانية.

ورغم احتياج المشروع لبعض الفنيين الأجانبي في إقامة الجسور والأنفاق، فإنهم لم يستخدموا إلا إذا اشتدت الحاجة إليهم، مع العلم بأن الأجانب لم يشتركوا إطلاقاً في المشروع، ابتداءً من محطة الأخضر ـ على بعد ٧٦٠ كيلومتراً جنوب دمشق ـ وحتى نهاية المشروع. ذلك لأن لجنة المشروع استغنت عنهم واستبدلتهم بفنيين مصريين.

وبلغ عدد العمال المهرة عام ١٩٠٧م (٧٥٠٠) عامل. وبلغ إجمالي تكاليف المشروع (٤,٢٨٣,٠٠٠) ليرة عثمانية. وتم إنشاء المشروع في زمن وتكاليف أقل مما لو تعمله الشركات الأجنبية في أراضي الدولة العثمانية[1]. وفي أغسطس سنة ١٩٠٨م وصل الخط الحديدي إلى المدينة المنورة وكان مفروضاً أن يتم مده بعد ذلك إلى مكة لكن حدث أن توقف العمل فيه، لأن شريف مكة ـ وهو الحسين بن علي ـ خشي على سلطانه في الحجاز من بطش الدولة العثمانية فنهض لعرقلة مد المشروع إلى مكة وكانت مقر إمارته وقوته. فبقيت نهاية الخط عند المدينة المنورة حتى إذا قامت الحرب الكبرى الأولى عمل الإنكليز بالتحالف مع القوات العربية التي انضمت إليهم بقيادة فيصل بن الحسين بن علي على تخريب سكة حديد

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٢٤.

الحجاز ولا تزال هذه السكة معطلة حتى اليوم، والمأمول أن تبذل الجهود لإصلاحها حتى تعود إلى العمل في تيسير سفر حجاج بيت اللّه الحرام[١].

وقد وصف السفير البريطاني في القسطنطينية في تقريره السنوي (**١**) لعام **١٩٠٧م** أهمية الخط الحجازي فقال: (إن بين حوادث السنوات العشر الأخيرة عناصر بارزة في الموقف السياسي العام، أهمها خطة السلطان الماهرة التي استطاع أن يظهر بها أمام ثلاثمائة مليون من المسلمين في ثوب الخليفة الذي هو الرئيس الروحي للمسلمين، وأن يقيم لهم البرهان على قوة شعوره الديني وغيرته الدينية، ببناء سكة حديد الحجاز التي ستمهد الطريق في القريب العاجل أمام كل مسلم للقيام بفريضة الحج إلى الأماكن المقدسة في مكة والمدينة). فلا غرو إذا ما لمسنا حنق الإنكليز على ذلك الخط الحديدي وافتعالهم الأزمات لإعاقته، وانتهازهم أول فرصة لتعطيله ونسفه، لقطع الطريق على القوات العثمانية[٢].

وكان أول قطار قد وصل إلى محطة سكة الحديد في المدينة المنورة من دمشق الشام يوم **٢٢ آب (أغسطس) ١٩٠٨م**، وكان بمثابة تحقيق حلم من الأحلام بالنسبة لمئات الملايين من المسلمين في أنحاء العالم كافة، فقد اختصر القطار ـ في رحلته التي استغرقت ثلاثة أيام وقطع فيها ٨١٤ ميلاً ـ مشقات رحلة كانت تستغرق في السابق أكثر من خمسة أسابيع كما خفقت في ذلك اليوم التاريخي قلوب أولئك الذين كانوا مشتاقين إلى القيام بأداء فريضة الحج المقدسة[٣].

كانت سياسة عبد الحميد الإسلامية محصنة، فأراد أن يجمع قلوب المسلمين حواليه باعتباره خليفة المسلمين جميعاً فكان مد خط السكة الحديدي بين الشام والحجاز من الوسائل الجميلة في تحقيق هدفه المنشود[٤].

كان كرومر المعتمد البريطاني في مصر (**١٣٠١ ـ ١٣٢٥هـ/ ١٨٨٣ ـ ١٩٠٧م**) من أوائل من ألب أوروبا على الجامعة الإسلامية، وحرص على أن يتحدث في تقاريره السنوية عن الجامعة الإسلامية ببغض شديد، وفي الوقت نفسه نشرت جريدة الأهرام (المصرية) تصريحات مثيرة لوزير فرنسي هو (هانوتو) هاجم فيها الجامعة الإسلامية. وكانت مهاجمة الجامعة الإسلامية تستتبع بالتالي بمهاجمة الدولة العثمانية حتى تتفرق الوحدة التي تجمع من حولها الدول الإسلامية لتواجه النفوذ الاستعماري الزاحف، الذي قد رسم مخططه على أساس التهام هذه

---

(١) و(٢) و (٣) و (٤) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ١١٤.

الوحدات والحيلولة دون التقائها مرة أخرى في أي نوع من الوحدة ليستديم سيطرته عليها[١]؛ فاتخذوا لذلك عدة أعمال أساسية:

١ ـ تعميق الدعوات الإقليمية والخاصة بالوطنية والأرض والأمة والعرق.

٢ ـ خلق جو فكري عام لمحاربة الوحدة الإسلامية وتصفيتها.

وكل هذا مقدمة لإلغاء الخلافة العثمانية نهائياً وبالتعاون مع الصهيونية العالمية[٢] ويهود الدونمة وأذنابهم من جمعيات تركيا الفتاة، والاتحاد والترقي...

سياسة التودد والاستمالة!

انتهج السلطان عبد الحميد الثاني سياسة التودد إلى الشخصيات ذات النفوذ في الأوساط الشعبية في مختلف البقاع، فهو من ناحية كان يظهر احترامه لأهل العلم، ويعلي من قدرهم، ومن أجل ذلك جعل مجلس المشايخ، ورتب رواتب أعضائه، وكان حسن النية مع مرشديهم، وكان أرباب العلم ذوي رُتب عالية عنده، وكان يتودد إلى الشخصيات المهمة والتي تشجع وتقف مع فكرة الجامعة الإسلامية، مثل (مصطفى كامل باشا) في مصر، ويعفو عن أخطاء البارزين ـ إذا كانوا يحسنون النية معه، ما داموا مقتنعين ومساندين لفكرة الجامعة الإسلامية ـ مثل (نامق كمال).

وكان يختار بعض طلاب مدرسة الشعائر العربية من أبناء العائلات الأصيلة العريقة ذات النفوذ والسطوة والسمعة الطيبة من أبناء زعماء العرب. وقد توسعت هذه المدرسة فيما بعد وأخذت من أبناء الأكراد والألبان، وحرص على الاتصال بزعماء وشيوخ وأمراء قبائل العرب بواسطة الرسائل والرسل لتقوية روابط الود والمحبة والأخوة الإسلامية، وكان على معرفة تامة بعمل الإنكليز الذين اتصلوا بالشيوخ مثل (شريف مكة) و (الشيخ حميد الدين) في اليمن، وشيخ عسير، وبعض الشيوخ من أجل تحريضهم على الدولة العثمانية وتشجيعهم على الخروج على طاعة الخليفة، والانفصال عن الدولة العثمانية.

وعمل على إبطال مخططات الإنكليز ومؤامراتهم الخبيثة، ولم يتوان عن حجز من يشك في ولائهم للدولة العثمانية ويلزمهم بالبقاء تحت رقابة الدولة في استانبول تحت مسميات المناصب والمرتبات، حتى تأمن الدولة مؤامراتهم، كما فعل مع شريف مكة عندما عينه عضواً في مجلس شورى الدولة في استانبول، ليمنعه من العودة إلى مكة. وقد عبر السلطان عبد الحميد عن رأيه في الشريف

(١) و(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصري (١/ ١٠١).

حسين، أثناء حديثه مع الصدر الأعظم فريد باشا، قال السلطان عبد الحميد: (إن الشريف حسين لا يحبنا. إنه الآن هادئ وساكن، لكن اللَّه وحده يعلم ماذا يمكن أن يفعله الشريف غداً). لذلك تأخر قيام الثورة العربية بقيادة الشريف حسين إلى ما بعد خلع الاتحاديين للسلطان عبد الحميد.

فلما حكم حزب الاتحاد والترقي الماسوني، أعاد الشريف حسين إلى مكة، واستطاع بعد ذلك أن يتحالف مع الإنكليز ويحدث فجوة كبيرة بين مسلمي العرب والأتراك[١].

سابعاً

إبطاله مخططات الأعداء

شرعت بريطانيا منذ الربع الأول من القرن التاسع عشر في تحريض الأكراد ضد الدولة العثمانية، بهدف إيجاد عداء عثماني كردي من ناحية، وانفصال الأكراد بدولة تقتطع من الدولة العثمانية من ناحية أخرى.

وعندما قامت شركة الهند البريطانية زاد اهتمام الإنكليز بالعراق، وقامت على العمل لإيجاد حركة قومية بين الأمراء، وتجول مندوبون بريطانيون بين عشائر الأكراد في العراق في محاولة لتوحيد العشائر الكردية ضد الدولة العثمانية، وكانت المخابرات العثمانية تتابع الأمور بدقة متناهية، ووضع السلطان عبد الحميد خطة مضادة للعمل التدميري الإنكليزي فقام بالتالي:

* قامت الدولة العثمانية بحماية المواطنين الأكراد من هجمات الأرمن الدموية ضدهم.
* أرسل إلي عشائر الأكراد وفوداً من علماء المسلمين للنصح والإرشاد والدعوة إلى الاجتماع تحت دعوة الجامعة الإسلامية، وأدت هذه الوفود دورها في إيقاظ الأكراد تجاه الأطماع الغربية.
* اتخذ السلطان عبد الحميد إجراءات يضمن بها ارتباط أمراء الأكراد به وبالدولة.
* أسس الوحدات العسكرية الحميدية في شرق الأناضول من الأكراد، للوقوف أمام الاعتداءات الأرمنية.
* كان موقف الدولة قوياً ضد أطماع الأرمن في إقامة دولة تقطع من أراضيها، وبذلك شعر الأكراد المقيمون في نفس المنطقة بالأمان[٢].

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٢٧.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٣١، ١٣٢.

* عملت الدولة على كشف مخططات الإنكليز الهادفة إلى تفتيت الدولة العثمانية تحت مسمى حرية القوميات في تأسيس لكل قومية دولة مختصة بها.

استطاع السلطان عبد الحميد أن يضيق على النفوذ البريطاني في اليمن ويحقق نجاحاً ظاهراً في صراعه مع الإنكليز في تلك المنطقة، فقد أنشأ فرقة عسكرية في اليمن قوامها ثمانية آلاف جندي، لإعادة اليمن إلى الدولة العثمانية مرة أخرى، ووصل اهتمامه باليمن إلى إرسال مشاهير قادته ليقودوا هذه الفرقة مثل (أحمد مختار باشا) و (أحمد فوزي باشا) و (حسين حلمي باشا) و (توفيق باشا) والمشير (عثمان باشا) و (إسماعيل حقي باشا). وقد حاول الإنكليز إذكاء نيران التمرد في اليمن ضد الدولة العثمانية ولكن السياسة الحكيمة التي سار عليها السلطان عبد الحميد كفلت له النجاح في اليمن[١].

وكانت العقلية العثمانية تسعى لمد خط السكة الحديد من الحجاز إلى اليمن، وهذا ما تثبته الوثائق التي دلت على وجود تخطيط ودراسة عميقة لهذا المشروع الكبير[٢].

ثامناً

الأطماع الإيطالية في ليبيا

كانت إيطاليا تحلم بضم شمال أفريقيا، لأنها تراه ميراثاً إيطالياً، هكذا صرح رئيس وزرائها (ماتريني)[٣]. لكن فرنسا احتلت تونس، وإنكلترا احتلت مصر، ولم يبق أمام إيطاليا إلا ليبيا.

*** رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل:**

الأولى: الحلول السلمية، بإنشاء المدارس والبنوك وغيرها من «مؤسسات خدمية».

الثانية: العمل على أن تعترف الدول بآمال إيطاليا في احتلال ليبيا، بالطرق الدبلوماسية.

الثالثة: إعلان الحرب على الدولة العثمانية والاحتلال الفعلي.

وكانت السياسة الإيطالية لا تلفت النظر إلى تحركاتها، بعكس السياسة

(١) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٤.
(٢) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٢٢١.
(٣) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ١٣٨.

البريطانية أو الفرنسية في ذلك الوقت، وكان الإيطاليون يتحركون «بحكمة» و «هدوء» شديدين دون إثارة حساسية العثمانيين.

وكان السلطان عبد الحميد متيقظاً لتلك الأطماع الإيطالية وطلب معلومات من مصادر مختلفة عن نشاط الإيطاليين في «ليبيا» وأهدافهم، فجاءته المعلومات تقول: (إن للإيطاليين بمدارسهم وبنوكهم ومؤسساتهم الخيرية التي يقيمونها في الولايات العثمانية، سواء في ليبيا أو في ألبانيا، هدفاً آخراً هو تحقيق أطماع إيطاليا في الاستيلاء على كل من:

١ ـ طرابلس الغرب.

٢ ـ ألبانيا.

٣ ـ مناطق الأناضول الواقعة على البحر الأبيض المتوسط: أزمير ـ الإسكندرون ـ أنطاكيا).

قام السلطان عبد الحميد الثاني باتخاذ التدابير أمام الأطماع الإيطالية، ولما شعر أنه سيواجه اعتداءً إيطالياً مسلحاً على ليبيا، قام بإمداد القوات العثمانية في ليبيا بـ (١٥٠٠) جندي لتقويتها، وظل حساساً تجاه التحركات الإيطالية، ويتابعها شخصياً وبدقة، ويطالع كل ما يتعلق بالشؤون الليبية بنفسه بواسطة سفير الدولة العثمانية في روما، ووالي طرابلس، مما جعل الإيطاليين يضطرون إلى تأجيل احتلال ليبيا وتم لهم ذلك في عهد جمعية الاتحاد والترقي[1].

إن فكرة الجامعة الإسلامية كان لها صدى بعيد في العالم الإسلامي لعدة أسباب منها:

١ ـ كانت الدول الأوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر تتنافس على الاستعمار في الشرق، وحدثت سلسلة اعتداءات على الشعوب الإسلامية؛ فاحتلت فرنسا تونس (١٨٨١م)، واحتلت إنكلترا مصر (١٨٨٢م)، وتدخلت فرنسا في شؤون مراكش حتى استطاعت أن تعلن عليها الحماية (١٩١٢م) مقتسمة أراضيها مع إسبانيا، وكذلك توغل الاستعمار الأوروبي في بلاد أفريقيا الإسلامية كالسودان ونيجيريا وزنجبار وغيرها.

٢ ـ تقدمت وسائل النقل والاتصالات بين العالم الإسلامي، وانتشرت الحركة الصحافية في مصر وتركيا والجزائر والهند وفارس وأواسط آسيا وجاوة (أندونيسيا)، وكانت الصحف تعالج موضوع الاستعمار وأطماع الدول

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٣٩.

الأوروبية في العالم الإسلامي وتنشر أخبار الأوروبيين المتكررة في الهجوم على ديار الإسلام، فتتأثر القلوب، وتهيج النفوس، وتتفاعل مشاعر وعواطف المسلمين مع إخوانهم المنكوبين.

٣ ـ جهود العلماء ودعواتهم في وجوب إحياء مجد الإسلام، فقد انتشرت في ربوع العالم الإسلامي الدعوة إلى وحدة الصف وازداد الشعور بأن العدوان الغربي مستمر بغير انقطاع على الشعوب الإسلامية مما يزيدها ارتباطاً وتماساً، وبأن الوقت قد حان لتلتحم الشعوب الإسلامية وتنضوي تحت راية الخلافة العثمانية وغير ذلك من الأسباب[١] .

إن السلطان عبد الحميد الثاني نجح في إحياء شعور المسلمين بأهمية التمسك والسعي لتوحيد صفوف الأمة تحت راية الخلافة العثمانية وبذلك يستطيع أن يحقق هدفين:

الأول: تثبيت دولة الخلافة في الداخل ضد الحملات القومية التغريبية الماسونية اليهودية، والاستعمارية النصرانية.

الثاني: وفي الخارج تلتف حول راية الخلافة جموع المسلمين الخاضعين للدول الأوروبية كروسيا وبريطانيا وفرنسا. وبذلك يستطيع أن يجابه تلك الدول ويهددها بإثارة المسلمين وإعلانه الجهاد عليها في جميع أنحاء العالم الإسلامي[٢] .

❁ ❁ ❁

(١) صحوة الرجل المريض، ص ١١٢.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٣.

الفصل الثالث

السلطان عبد الحميد واليهود

إن حقيقة الصراع بين السلطان عبد الحميد الثاني واليهود من أهم الأحداث في تاريخ السلطان المسلم الغيور عبد الحميد الثاني.

إن أمر اليهود وعداءهم للإسلام يعود جذوره إلى ظهور الإسلام، منذ أن انتصر الإسلام وأجلاهم رسول اللّه ﷺ عن المدينة المنورة لخيانتهم المتكررة وعداواتهم الدائمة، ومن ثم عن سائر الجزيرة العربية في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب، وهم يكيدون له، وقد تظاهر بعضهم بالإسلام وبث السموم في جسم الأمة الإسلامية عبر تاريخها الطويل، وما عبد اللّه ابن سبأ والقرامطة والحشاشون والراوندية والدعوات الهدامة التي ظهرت في تاريخ المسلمين عنهم ببعيد.

لقد أهدى تتار بلاد القرم للسلطان سليمان القانوني في القرن الخامس عشر الميلادي فتاة يهودية روسية كانوا قد سبوها في إحدى غزواتهم، فتزوجها السلطان سليمان القانوني وأنجبت له بنتاً، فما أن كبرت تلك البنت حتى سعت أمها اليهودية لتزويجها من اللقيط الكرواتي رستم باشا، ثم إمعاناً منها في الغدر تمكنت من قتل الصدر الأعظم إبراهيم باشا ونصبت صهرها اللقيط بدلاً منه، ثم قامت بتدبير مؤامرة أخرى استطاعت بها أن تتخلص من ولي العهد مصطفى ابن السلطان سليمان من زوجته الأولى ونصبت ابنها سليم الثاني ولياً للعهد.

في ذلك الزمن كان اليهود قد تعرضوا للاضطهاد في الأندلس وروسيا وتشرد الكثير منهم هرباً من محاكم التفتيش، فتقدمت تلك اليهودية من السلطان وسعت لديه بالحصول على إذن لهم بالهجرة إلى البلاد، وبالفعل فقد استقر قسم منهم في أزمير ومنطقة أدرنة، ومدينة بورصة والمناطق الشمالية والغربية من الأناضول، وبعد استقرارهم في الدولة العثمانية، طبقت الحكومة عليهم أحكام الشريعة الإسلامية حيث تمتعوا في ظلها بقدر كبير من الاستقلال الذاتي، وفي الواقع أن يهود إسبانيا لم يجدوا المأوى فقط في تركيا العثمانية بل وجدوا الرفاهية والحرية التامة بحيث أصبح لهم التسلسل الهرمي في الدولة، إذ تغلغلوا في المراكز الحساسة منها مثل دون جوزيف ناسي، وغيره. وتمتع يهود إسبانيا بشيء كبير من الاستقلال وأصبح

رئيس الحاخامين مخولاً له السلطة في الشؤون الدينية والحقوق المدنية، بحيث إن مراسم وقرارات هذا الحاخام كانت تصدق من قبل الحكومة إلى درجة تحولت إلى قانون يخص اليهود[١].

وتجدر الإشارة في هذا المجال، إلى أن علي باشا وزير الخارجية (أصبح فيما بعد الصدر الأعظم) قد شارك في بعثته الدبلوماسية عدد من اليهود في عام ١٨٦٥م المرسلة إلى الأقطار الأوروبية المسيحية[٢].

إن اليهود تمتعوا بكل الامتيازات والحصانات بموجب قوانين رعايا الدولة[٣]. ووجدوا السلم والأمان وحرية الوجود الكامل في الدولة العثمانية[٤].

أولاً
يهود الدونمة

هناك مفاهيم عديدة لكلمة الدونمة، إذ إن الكلمة من الناحية اللغوية مشتقة من الكلمة التركية (دونمك) التي تعني الرجوع أو العودة أو الارتداد. أما المفهوم الاجتماعي لهذه الكلمة فإنه يعني المرتد أو المتذبذب، بينما تعني هذه الكلمة من الناحية الدينية مذهباً دينياً جديداً، دعا إليه الحاخام شبتاي زيفي، أما المفهوم السياسي لهذه الكلمة فإنه يعني اليهود المسلمين الذين لهم كيانهم الخاص[٥]، وقد أطلق المعنى الخاص بالدونمة منذ القرن السابع عشر على اليهود الذين يعيشون في المدن الإسلامية وخاصة في ولاية سلانيك وأطلق العثمانيون اسم الدونمة على اليهود لغرض بيان وتوضيح العودة من اليهودية إلى الإسلام، ثم أصبح علماً على فئة من يهود الأندلس الذين لجأوا إلى الدولة العثمانية وتظاهروا باعتناق العقيدة الإسلامية[٦].

إن مؤسس فرقة الدونمة هو شبتاي زيفي الذي ادعى أنه المسيح المنتظر في القرن السابع عشر، حيث انتشرت في تلك الأيام شائعة تقول: إن المسيح سيظهر في عام ١٦٤٨م كي يقود اليهود في صورة المسيح، وأنه سوف يحكم العالم في

(١) و (٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمي، ص ٣٧.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٣٩.
(٥) انظر: يهود الدونمة، د. أحمد النعيمي، ص ٨.
(٦) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٤٢.

فلسطين، ويجعل القدس عاصمة الدولة اليهودية المزعومة(١)، وكانت فكرة المسيح المنتظر ذائعة عندئذ في المجتمع اليهودي، وكانت الأوساط اليهودية القديمة تؤمن بقرب ظهور هذا المسيح. ولذلك صادفت دعوة شبتاي تأييداً كبيراً بين يهود فلسطين ومصر وشرق أوروبا، بل أيدها كثير من اليهود وأصحاب الأموال لأغراض سياسية ومالية(٢).

وذاع أمر شبتاي في أوروبا وبولندا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وإيطاليا وشمال أفريقيا وغيرها.

وفي أزمير أخذ يلتقي بالوفود اليهودية التي جاءت من أدرنة وصوفيا واليونان وألمانيا، حيث قلدته هذه الوفود تاج «ملك الملوك»، ثم قام شبتاي بتقسيم العالم إلى ثمانية وثلاثين جزءاً، وعين لكل منها ملكاً، اعتقاداً منه بأنه يحكم العالم كله من فلسطين، حيث كان يقول في هذا المجال: (أنا سليل سليمان بن داود حاكم البشر وأعتبر القدس قصراً لي)(٣).

وقام شبتاي بشطب اسم السلطان محمد الرابع من الخطب التي كانت تلقى في كنيس اليهود وجعل اسمه محل اسم السلطان، وسمى نفسه (سلطان السلاطين) و (سليمان بن داود) مما لفت انتباه الحكومة العثمانية(٤).

وأصبح شبتاي مصدر قلق لكثير من حاخامي اليهود ورفعوا ضده شكوى إلى السلطان، أكدوا فيها أن شبتاي ينوي القيام بحركة تمردية في سبيل تأسيس دولة يهودية في فلسطين(٥).

ونتيجة لاشتداد فتنة شبتاي زيفي، أصدر الوزير القوي أحمد كوبرولو أوامره بإلقاء القبض عليه، وأودعه في السجن، وظل فيه لمدة شهرين ثم نقل إلى قلعة جزيرة غاليبولي على الدردنيل، وسمح لزوجته وكاتبه الخاص أن يتخذا لهما سكناً معه وأصبح له مجلس كمجلس الأمراء، لا يدخل عليه إلا بإذن مسبق، وينتظر الذين يريدون أن يتمتعوا برؤيته أياماً من أجل ذلك، وأخذت زوجته تسلك سلوك الأميرات مع القادمين عليها والقادمات حيث كانت وفود يهودية من أنحاء العالم تقدم لزيارته(٦).

---

(١) انظر: يهود الدونمة، ص ١٦.
(٢) انظر: يهود الدونمة، ص ٢١.
(٣) و(٤) المصدر السابق نفسه: ص ٢٧.
(٥) المصدر السابق نفسه: ص ٣٤.
(٦) المصدر السابق نفسه: ص ٣٦.

حوكم شبتاي في سراي أدرنة، حيث شكل السلطان هيئة علمية إدارية برئاسة نائب الصدر الأعظم وعضوية كل من (شيخ الإسلام) يحيى أفندي منقري زاده وواحد من كبار العلماء وهو إمام القصر محمد أفندي وانلي، وقام بدور المترجم من الإسبانية إلى التركية الطبيب مصطفى حياتي[١].

أكد قاضي المحكمة أن المسألة تعد مهمة بالنسبة للدولة العثمانية، وعلى مسمع من السلطان الذي جلس في غرفة مجاورة (بواسطة الترجمان قيل لشبتاي: تدعي أنك المسيح فأرنا معجزتك، سنجردك من ثيابك ونجعلك هدفاً لسهام المهرة من رجالنا فإن لم تغرز السهام في جسمك فسيقبل السلطان ادعاءك. فهم شبتاي ما قيل له فأنكر ما أسند إليه وقال إنهم تقولوا عليه)[٢]، فعرض عليه الإسلام فدخل فيه تحت اسم محمد عزيز أفندي[٣]، وطلب من السلطات العثمانية أن تسمح له بدعوة اليهود إلى الإسلام، فأذنت له وانتهزها فرصة فانطلق بين اليهود يواصل دعوته إلى الإيمان به، ويحثهم على ضرورة تجمعهم معلنين في ظاهرهم الإسلام مبطنين يهوديتهم المنحرفة[٤].

وظل شبتاي وأنصاره يتبعون دينهم الموسوي سراً، ويمارسون العمل للصهيونية في الخفاء، ويظهرون الإخلاص للإسلام في العلن والصلاح والتقوى أمام الأتراك، وكان يقول لأتباعه إنه كالنبي موسى الذي اضطر أن يبقى مدة من الزمن في قصور الفراعنة[٥]، وفي ظل هذه الظروف ألقي القبض على شبتاي مع مجموعة من أتباعه في كنيس (قوري جشمه) الكائنة في داخل المعبد بسبب أنه كان مرتدياً زياً يهودياً وهو محاط بالنساء يشربون الخمر وينشدون الأناشيد اليهودية، وقراءة المزامير مع عدد من اليهود فضلاً عن اتهامه بدعوته المسلمين إلى ترك دينهم والإيمان به، ولولا تدخل شيخ الإسلام لقطع رأسه، حيث اعترض على إعدامه قائلاً: (لو أعدم هذا المحتال سيكون سبباً لحدوث خرافة في الإنسانية. حيث يدعي مريدوه بعروجه إلى السماء كعيسى عليه السلام)[٦]. فاكتفى بنفيه إلى مدينة دولسجنو في ألبانيا وذلك في صيف عام **١٦٧٣م**، وتوفي بعد خمس سنوات من نفيه وظلت عقيدة الشبتائيه موجودة لدى فرق سالونيك، وتفنن أتباعه في

---

(١) المصدر السابق نفسه: ص ٣٦.

(٢) يهود الدونمة، مصطفى طوران، ترجمة كمال خوجه نقل منه د. علي حسون، ص ٢٤٣.

(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص ٢٤٣.

(٤) انظر: يهود الدونمة، ص ٣٦.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٤١.

(٦) المصدر السابق نفسه، ص ٤٢.

ممارسة المكر والتعصب والتجرد من المبادئ، والأخلاق[١].

وقد نظم شبتاي زيفي عقيدة الدونمة في ثماني عشرة مادة وفي الحقيقة تعد المادة السادسة عشرة والسابعة عشرة أهم سمات الدونمة، إذ تشير المادة (١٦): (يجب أن تطبق عادات الأتراك لصرف أنظارهم عنكم، ويجب ألا يظهر أحد من الأتباع تضايقه من صيام رمضان ومن الأضحية ولمن ينفذ كل شيء يجب تنفيذه أمام الملأ)[٢]. أما المادة (١٧) فإنها تشير إلى الآتي: (إن مناكحتهم (يعني المسلمين) ممنوعة قطعاً)[٣].

إن شبتاي يعد أول يهودي بشّر بعودة بني إسرائيل إلى فلسطين، وفي حقيقة الأمر، عدت حركة زيفي حركة سياسية ضد سلطة الدولة العثمانية أكبر من كونها حركة دينية[٤].

لقد أسهمت هذه الطائفة في هدم القيم الإسلامية في المجتمع العثماني وعملت على نشر الإلحاد والأفكار الغربية وانتشار الماسونية، والدعوة لهتك حجاب المرأة المسلمة واختلاطها مع الرجال وخاصة في المدارس، وكان الكثير من رجال الاتحاد والترقي يساهم في بعض نشاطاتها وأفراحها.

وقام يهود الدونمة بدور فعال في نصرة القوى المعادية للسلطان عبد الحميد والتي تحركت من سالونيك لعزله وهم الذين سمموا أفكار الضباط الشباب، ولا يزالون حتى وقتنا الحاضر يسعون لذلك ولهم صحف ودور نشر، وتغلغلوا في الاقتصاد العثماني وكل مناحي الحياة في الدولة العثمانية[٥].

وقد استطاعوا أن يؤثروا في جمعية الاتحاد والترقي، وكان السلطان عبد الحميد الثاني عارفاً بحقيقة الدونمة ويؤكد هذه الحقيقة الجنرال جواد رفعت أتلخان، حيث يقول في هذا الصدد: (إن الشخص الوحيد في تاريخ الترك جميعه، الذي عرف حقيقة الصهيونية والشبتائية وأضرارهما على الترك والإسلام وخطرهما تماماً، وكافح معهما مدة طويلة بصورة جدية لتحديد شرورهم هو السلطان التركي العظيم، كافح هذه المنظمات الخطيرة لمدة ثلاث وثلاثين سنة بذكاء وعزم وبإرادة مدهشة جداً كالأبطال)[٦].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٤٣.
(٢) و (٣) انظر: يهود الدونمة: ص ٤٥.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٤٦.
(٥) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص ٤٦.
(٦) انظر: السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية للجندي، ص ١٠٧.

وفي حقيقة الأمر، اهتم عبد الحميد بإبقاء الدونمة في ولاية سالونيك، وعدم وصولهم إلى الأستانة، بغية عدم السيطرة عليها والتجنب من تحركاتهم، ونتيجة للموقف الجاد من عبد الحميد إزاء فرقة الدونمة اتبعوا استراتيجية مضادة له، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش[١].

ونتيجة لموقف عبد الحميد من الدونمة، قام يهود الدونمة بالتعاون مع المحافل الماسونية للإطاحة به، وقد استخدم هؤلاء شعارات معينة كالحرية والديمقراطية وإزاحة المستبد عبد الحميد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة العثمانية بين صفوف الجيش. وكانت الغاية من هذا هي تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني باستيطان فلسطين. وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية[٢].

ثانياً

السلطان عبد الحميد وزعيم اليهودية العالمية (هرتزل)

استطاع زعيم الحركة اليهودية الصهيونية العالمية (تيودور هرتزل) أن يتحصل على تأييد أوروبي للمسألة اليهودية من دول (ألمانيا، وبريطانيا، وفرنسا) وجعل من هذه الدول قوة ضغط على الدولة العثمانية تمهيداً لمقابلة السلطان عبد الحميد، وطلب فلسطين منه، وكانت الدولة العثمانية تعاني من مشاكل مالية متعددة، إذ كانت الأحوال الاقتصادية في البلاد على درجة من السوء بحيث فرضت الدول الأوروبية الدائنة وجود بعثة مالية أوروبية في تركيا العثمانية للإشراف على أوضاعها الاقتصادية ضماناً لديونها، الأمر الذي دفع عبد الحميد الثاني أن يجد حلاً لهذه المعضلة.

كانت هذه الثغرة هي السبيل الوحيد أمام هرتزل، كي يؤثر على سياسة عبد الحميد الثاني تجاه اليهود. وفي هذا الصدد يقول هرتزل في مذكراته: (علينا أن ننفق عشرين مليون ليرة تركية لإصلاح الأوضاع المالية في تركيا... مليونان منها ثمناً لفلسطين والباقي لتحرير تركيا العثمانية بتسديد ديونها تمهيداً للتخلص من

(١) انظر: يهود الدونمة: ص ٨١.
(٢) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا لمحمد مصطفى، ص ٦٨، ٦٩.

البعثة الأوروبية. . . ومن ثم نقوم بتمويل السلطان بعد ذلك بأي قروض جديدة يطلبها[١].

لقد أجرى هرتزل اتصالات مكثفة مع المسؤولين في ألمانيا والنمسا وروسيا وإيطاليا وإنكلترا، وكانت الغاية من هذه الاتصالات هي إجراء حوار مع عبد الحميد الثاني. وفي هذا الصدد فقد نصح لاندو منذ **٢١ شباط ١٩٨٦م** الصديق اليهودي لهرتزل أن يقوم بواسطة صديقه نيولنسكي رئيس تحرير (بريد الشرق). وفي هذا المجال يقول هرتزل: (إن نحن حصلنا على فلسطين، سندفع لتركيا كثيراً أو سنقدم عطايا كثيرة. . لمن يتوسط لنا. ومقابل هذا نحن مستعدون أن نسوي أوضاع تركيا المالية. سنأخذ الأراضي التي يمتلكها السلطان ضمن القانون المدني، مع أنه ربما لم يكن هناك فرق بين السلطة الملكية والممتلكات الخاصة)[٢].

وقام هرتزل بزيارة إلى القسطنطينية وذلك في **حزيران عام ١٨٩٦م**، ورافقه في هذه الزيارة نيولنسكي، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد، ونتيجة لذلك فقد نقل نيولنسكي، الذي كانت له علاقة ودية مع السلطان عبد الحميد، آراء هرتزل إلى قصر يلدز، وقد دارت محاورة بين نيولنسكي والسلطان عبد الحميد إذ قال السلطان له: (هل بإمكان اليهود أن يستقروا في مقاطعة أخرى غير فلسطين؟ أجاب نيولنسكي قائلاً:

(تعتبر فلسطين هي المهد الأول لليهود، وعليه فإن اليهود لهم الرغبة فى العودة إليها)، ورد السلطان قائلاً: (إن فلسطين لا تعتبر مهداً لليهود فقط، وإنماتعتبر مهداً لكل الأديان الأخرى). أجاب نيولنسكي قائلاً: (في حالة عدم استرجاع فلسطين من قبل اليهود فإنهم سوف يحاولون الذهاب وبكل بساطة إلى الأرجنتين)[٣].

وقام السلطان عبد الحميد بإرسال رسالة إلى هرتزل بواسطة صديقه نيولنسكي جاء فيها: (انصح صديقك هرتزل، أن لا يتخذ خطوات جديدة حول هذا الموضوع، لأني لا أستطيع أن أتنازل عن شبر واحد من الأراضي المقدسة، لأنها ليست ملكي، بل هي ملك شعبي. وقد قاتل أسلافي من أجل هذه الأرض،

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١١٦.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١١٧.
(٣) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٢٠.

ورووها بدمائهم؛ فليحتفظ اليهود بملايينهم. إذا مزقت دولتي، من الممكن الحصول على فلسطين بدون مقابل، ولكن إذا لزم الأمر فليبدأ التمزيق أولاً في جثتنا، ولكن لا أوافق على تشريح جثتي وأنا على قيد الحياة)[١].

*** وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد في مذكراته:**

(ومن المناسب أن نقوم باستغلال الأراضي الخالية في الدولة، وهذا يعني من جانب آخر، أنه كان علينا أن ننهج اتباع سياسة تهجير خاصة، ولكننا لا نجد أن هجرة اليهود مناسبة، لأن غايتنا هي استيطان عناصر تنتمي إلى دين أسلافنا وتقاليدنا، حتى لا يستطيعوا الهيمنة على زمام الأمور في الدولة)[٢].

وبعد إخفاق جهود هرتزل ووساطة نيولنسكي، اتجه هرتزل إلى قصر وليم الثاني إمبراطور ألمانيا، ولا سيما أنه كان صديقاً لعبد الحميد، بالإضافة إلى كون وليم الثاني هو الحليف الوحيد للعثمانيين في أوروبا[٣] إلا أن مساعيه لم تكلل بالنجاح. يقول المؤرخ التركي نظام الدين نظيف في كتابه (إعلان الحرية والسلطان عبد الحميد الثاني):

(.. عندما رد طلب الوفد اليهودي ـ المسند من قبل الإمبراطور وليم ـ في الحصول على وطن لهم، أي: عندما خاب هرتزل في مسعاه اشتد العداء ضد (يلدز) وهذا ما كان يتوقعه عبد الحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، فالمال متوفر لديهم وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العام متى شاءوا...)[٤].

يردف المؤرخ التركي قائلاً: (بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، نجد أنصار المشروطية يتخذون طابعاً منظماً وهجومياً، علماً بأنهم كانوا حتى ذلك الوقت متفرقين ويعملون دون نظام ودون تنسيق، إذ لم يكن صعباً عليهم توحيد أعداء عبد الحميد الذين نشأوا في ذلك المجتمع العثماني الخليط، وقد أخذ (المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي) على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق

(١) و (٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٢٠.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢١.

(٤) انظر: السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان، ص ٢٨١، ٢٨٢.

لأنه كان أقرب مركز ماسوني للامبراطورية العثمانية. ولعبت المحافل الإيطالية وخاصة محفل (ريزوتا) في سالونيك دوراً ملحوظاً)[١].

إزاء هذا الإخفاق قرر هرتزل أن يستخدم وسائل أخرى لاستمالة عبد الحميد الثاني، حيث عرض عن طريق نيولنسكي خدمته بواسطة القضية الأرمنية[٢] وفي هذا الصدد يقول هرتزل: (طلب مني السلطان أن أقوم بخدمة له، وهي أن أؤثر على الصحف الأوروبية، بغية قيام الأخيرة بالتحدث عن القضية الأرمنية بلهجة أقل عداء للأتراك، أخبرت نيولنسكي حالاً باستعدادي للقيام بهذه المهمة، ولكني أكدت على إعطائي فكرة وافية عن الوضع الأرمني: من هم الأشخاص في لندن الذين يجب أن أقنعهم بما يريدون، وأي الصحف يجب أن نستميلها لجهتنا وغير ذلك)[٣].

وعلى هذا الأساس، فقد نشطت الدبلوماسية الصهيونية لإقناع الأرمن بالتخلي عن ثورتهم، ونتيجة لذلك؛ فقد اتصل هرتزل مع سالزبوري والمسؤولين الإنكليز بغية استخدامهم للضغط على الأرمن، كما نشط اليهود في مدن أوروبية أخرى مثل فرنسا للقيام بنفس الدور، إلا أن دبلوماسية هرتزل قد أخفقت بسبب عدم تحمس بريطانيا، لأن ذلك كان يعني تأييد سياسة عبد الحميد، الأمر الذي يؤدي في إثارة الرأي العام البريطاني ضد الحكومة[٤].

وقد حاول هرتزل لقاء عبد الحميد الثاني، ولا سيما أثناء الزيارة الثانية للإمبراطور وليم الثاني إلى القسطنطينية، إلا أن موظفي قصر يلدز منعوه من ذلك. واستمر هرتزل في محاولاته المستمرة حتى تكللت جهوده بالنجاح بعد سنتين (١٨٩٩ ـ ١٩٠١م) من الاحتكاك المباشر مع الموظفين الكبار لقصر يلدز في مقابلة عبد الحميد، حيث قابل السلطان لمدة ساعتين، وقد اقترح هرتزل قيام البنوك اليهودية الغنية في أوروبا بمساعدة الدول العثمانية لقاء السماح بالاستيطان في فلسطين، بالإضافة إلى ذلك فإنه قد أكد لعبد الحميد أنه سوف يخفف الديون العامة للدولة العثمانية وذلك منذ عام ١٨٨١م، وقد وعد هرتزل عبد الحميد أن يحتفظ بمناقشاته السرية معه[٥].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٢.
(٢) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٣٢.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٧.
(٤) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٣٨.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٤١.

كان السلطان عبد الحميد في خلال مقابلته مع هرتزل مستمعاً أكثر منه متكلماً، وكان يرخي لهرتزل في الكلام كي يدفعه أن يتحدث بكل ما يخطر في مخيلته من أفكار ومشروعات ومطالب. وقد أدى هذا الأمر إلى أن يعتقد هرتزل بأنه نجح في مهمته هذه ولكنه أدرك في نهاية الأمر بأنه قد أخفق مع عبد الحميد وأنه أخذ يسير في طريق مسدود معه(١).

وبعد إخفاق جهود هرتزل عند عبد الحميد الثاني، تحدث هرتزل قائلاً: (في حالة منح السلطان فلسطين لليهود، سنأخذ على عاتقنا تنظيم الأوضاع المالية، أما في القارة الأوروبية فإننا سنقوم بإيجاد حصن منيع ضد آسيا، وسوف نبني حضارة ضد التخلف، كما سنبقى في جميع أنحاء أوروبا بغية ضمان وجودنا)(٢).

وفي الحقيقة كان عبد الحميد يرى أنه من الضروري عدم توطين اليهود في فلسطين، كي يحتفظ العنصر العربي بتفوقه الطبيعي. وفي هذا الصدد يقول: (... ولكن لدينا عدد كاف من اليهود، فإذا كنا نريد أن يبقى العنصر العربي متفوقاً، علينا أن نصرف النظر عن فكرة توطين المهاجرين في فلسطين، وإلا فإن اليهود إذا استوطنوا أرضاً تملكوا جميع مقدراتها خلال وقت قصير، ولذا نكون قد حكمنا على إخواننا في الدين بالموت المحتم)(٣).

وكانت الدولة العثمانية تسعى في أحيان كثيرة إلى إبعاد اليهود العثمانيين عن أفكار هرتزل والحركة الصهيونية، ومع ذلك فإنها في أحيان أخرى كانت تستخدم لغة التهديد معهم. وفي هذا الصدد أوضح علي فروخ بك الوسائل الإعلامية الأجنبية، وبصراحة تامة: (إنه لبعيد من الصواب أن يقوم الصهاينة على خلق صعوبات للحكومة العثمانية، بغية إرغامها على تحقيق مصالحها. ولكن هذه الصعوبات سوف تؤدي في نهاية الأمر إلى إلحاق الأذى بوجودهم السلمي والسعيد في الدولة العثمانية.. وهذه النقطة واضحة بالنسبة لعلاقة العثمانيين مع رعايا الأرمن، لأن قلة من المتمردين الذين قاموا على ارتكاب الخطأ والحماقة معتمدين إلى الإرشاد الميكافلي قد أدى في نهاية الأمر أن يندموا على ما فعلوه، من دون التوصل إلى أية نتيجة)(٤).

وعلى الرغم من إخفاق جهود هرتزل عند السلطان عبد الحميد، كتب هرتزل قائلاً: (يجب تملك الأرض بواسطة اليهود بطريقة تدريجية دونما حاجة إلى

---

(١) و (٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٣.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٦.

(٤) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٤٦.

استخدام العنف، سنحاول أن نشجع الفقراء من السكان الأصليين على النزوح إلى البلدان المجاورة بتأمين أعمال لهم هناك مع حظر تشغيلهم في بلدنا. إن الاستيلاء على الأرض سيتم بواسطة العملاء السريين للشركة اليهودي التي تتولى بعد ذلك بيع الأرض لليهود. علاوة على ذلك تقوم الشركة اليهودية بالإشراف على التجارة في بيع العقارات وشرائها، على أن يقتصر بيعها على اليهود وحدهم)[١].

وكتب هرتزل قائلاً: (أقر على ضوء حديثي مع السلطان عبد الحميد الثاني أنه لا يمكن الاستفادة من تركيا إلا إذا تغيرت حالتها السياسية أو عن طريق الزج بها في حروب تهزم فيها، أو عن طريق الزج بها في مشكلات دولية أو بالطريقتين معاً في آن واحد)[٢].

إن عبد الحميد كان يعرف أهداف الصهيونية، حيث قال في مذكراته السياسية: (لن يستطيع رئيس الصهاينة هرتزل أن يقنعني بأفكاره، وقد يكون قوله: ستحل المشكلة اليهودية يوم يقوى فيها اليهودي على قيادة محراثه بيده، صحيحاً في رأيه، إنه يسعى لتأمين أرض لإخوانه اليهود، لكنه ينسى أن الذكاء ليس كافياً لحل جميع المشاكل.. لن يكتفي الصهاينة بممارسة الأعمال الزراعية في فلسطين بل يريدون أموراً مثل تشكيل حكومة وانتخاب ممثلين، إنني أدرك أطماعهم جيداً، لكن اليهود سطحيون في ظنهم أنني سأقبل بمحاولاتهم. وكما أنني أقدر في رعايانا من اليهود خدماتهم لدى الباب العالي فإن أعادي أمانيهم وأطماعهم في فلسطين)[٣].

وعن القدس يقول عبد الحميد الثاني: (لماذا نترك القدس.. إنها أرضنا في كل وقت وفي كل زمان وستبقى كذلك، فهي من مدننا المقدسة، وتقع في أرض إسلامية، لا بد أن تظل القدس لنا)[٤].

لقد كان غرض السلطان عبد الحميد في استماعه إلى (تيودور هرتزل) معرفة الآتي:

١ ـ حقيقة الخطط اليهودية.

٢ ـ معرفة قوة اليهود العالمية ومدى قوتها.

(١) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٨.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٤٧.

(٣) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٤٧.

(٤) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٥٧.

٣ ـ إنقاذ الدولة العثمانية من مخاطر اليهود[١].

وشرع السلطان عبد الحميد في توجيه أجهزة الاستخبارات الداخلية والخارجية لمتابعة اليهود وكتابة التقرير عنهم، وأصدر إرادتين سنيتين الأولى في ٢٨ يونيو ١٨٩٠م والأخرى في ٧ يوليو ١٨٩٠م. في الأولى (رفض قبول اليهود في الممالك الشاهسانية) والأخرى: (على مجلس الوزراء دراسة تفرعات المسألة واتخاذ قرار جدّي وحاسم في شأنها)[٢].

واتخذ السلطان عبد الحميد الثاني كل التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، وفي سبيل ذلك عمل جاهداً على عدم إعطاء أي امتياز لليهود من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أرض فلسطين. ولا بد في هذه الحالة أن تتكاتف جهود المنظمات الصهيونية بغية إبعاد السلطان عبد الحميد الثاني من الحكم. ويعزز هذا القول هرتزل عندما قال: (إنني أفقد الأمل في تحقيق أماني اليهود في فلسطين، وإن اليهود لن يستطيعوا دخول الأرض الموعودة، ما دام السلطان عبد الحميد قائماً في الحكم، مستمراً فيه)[٣].

وتحركت الصهيونية العالمية، لتدعم أعداء السلطان عبد الحميد الثاني، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون في البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية[٤].

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٥٦.
(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٨٨.
(٣) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٥٨.
(٤) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني لمحمد حرب، ص ٢٣٤.

الفصل الرابع

السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي

كان الشباب العثماني المثقف في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد تأثر بأفكار الثورة الفرنسية، التي حققت حكماً ديمقراطياً في فرنسا وأتت بأفكار القومية والعلمانية والتحرر من حكم الفرد، وكذلك تأثر بالحركة القومية الإيطالية التي قادها (ماتزيني) بنظمها وخلاياها، وكانت الدولة العثمانية قد تعرضت لحملات عسكرية وإعلامية، غرضها إضعاف الدولة ومن ثم العمل على تفتيتها، وكانت الدول الأوروبية تتخذ من أوضاع النصارى في الدولة حجة للتدخل، وفي هذه الظروف وبالضبط في عام ١٨٦٥م، كان ستة من الشباب العثمانيين المثقفين يُسرون عن أنفسهم في حديقة في ضواحي استانبول تسمى (غابة بلغراد)، تحدث هؤلاء الشباب في موضوعات سياسية، وخرجوا بفكرة تكوين جمعية سرية، على نمط جمعية (إيطاليا الفتاة) التي أسسها الزعيم الإيطالي (ماتزيني) عام ١٨٣١م، بهدف الوحدة الإيطالية تحت راية الجمهورية، أطلق هؤلاء الشباب على جمعيتهم هذه اسم (اتفاق الحميّة) ومن ضمن هؤلاء الشباب الشاعر الذي أصبح فيما بعد واسع الشهرة: نامق كمال. ورأوا أن العمل لا بد أن يكون في شكل تعريف الشعب بحقوقه السياسية، وحصوله عليها، وبالتالي فإن رغبة الشعوب النصرانية في الاستقلال بمناطقها عن الدولة، لن تجد لها ما يبررها من تدخل أجنبي بحجة مساندة الأقليات الدينية، وكانوا يرون أن إنقاذ الدولة من حالة التردي التي وصلت إليها يكون بإيجاد نظام سياسي ديمقراطي. وكان في فرنسا في تلك الفترة مصطفى باشا الأمير المصري الذي نازع فؤاد باشا رغبته في تولي عرش مصر، وفي فرنسا أعلن الأمير أنه ضمن التيار المنادي بالدستور في الدولة العثمانية، وقدم نفسه بعبارة ممثل (حزب تركيا الفتاة) وأعجب هذا الاسم المجتمعات الأوروبية المعنية فشاع اسم (حزب تركيا الفتاة) في أوروبا.

التحق ثلاثة من الإعلاميين الثوريين العثمانيين هم: نامق كمال، ومحمد ضياء وعلي سعاوي، بالأمير مصطفى فاضل في باريس وكونوا منظمة أسموها

جمعية (العثمانيين الجدد). وكان أبرز شخصيات جمعية العثمانيين الجدد إعلاميين وشعراء وأدباء وعلى رأسهم نامق كمال وعلي سعاوي. وكان من أشهر تلك الشخصيات تأثيراً على الساحة الأوروبية نامق كمال الذي تثقف ثقافة إسلامية، كما تأثر بفلاسفة الثورة الفرنسية، مثل (روسو)، وله حياة أدبية واسعة وكتابات امتدت عبر ربع قرن عبر عن أفكاره من خلال الشعر، والإعلام، والكتابة والتاريخ، وكانت كتاباته تسعى للإجابة عن ثلاثة أسئلة هي:

١ - ما أسباب انحطاط الدولة العثمانية؟

٢ - ما الطرق التي يمكن بها أن نوقف هذا الانحطاط؟

٣ - ما الإصلاحات اللازم عملها في هذا السبيل؟

كما يمكن إدراج إجابات نامق كمال في ثلاث نقاط رئيسية هي:

١ - أسباب انحطاط الدولة العثمانية، أسباب اقتصادية، سياسية.

٢ - التربية، هي الطريق التي يمكن أن يوقف بها هذا الانحطاط.

٣ - الإصلاح الرئيسي الواجب عمله، هو: البدء بإقامة دولة مركزية دستورية.

وكان نامق كمال يرى أن حركة التنظيمات العثمانية، استبدلت بسلطة السلاطين سلطة الباب العالي، أي الصدور العظام الوزراء. لذلك فإن النظام الذي جاءت به التنظيمات، نظام أقل من النظام العثماني القديم. لذلك لم تستطع التنظيمات أن تحقق نهضة اقتصادية في الدولة. وفتحت هذه التنظيمات الباب على مصراعيه لتدخل الدول الأوروبية في الشؤون العثمانية الداخلية.

وقد قال نامق كمال بفكرة الحقوق الطبيعية التي هي الأساس الفلسفي للحضارة الغربية المعاصرة، وقدم نامق كمال مشروعاً للدستور العثماني، إلى مدحت باشا وكان متأثراً بالدستور الفرنسي (دستور نابليون الثالث عام ١٨٥٢م). ورأى نامق كمال أن هذا هو المناسب تماماً لظروف الدولة العثمانية في ذلك الوقت، وكان نامق كمال صديقاً لمدحت باشا، ولذلك تأثر بقرار السلطان عبد الحميد في عزله. وقد تحدث السلطان عبد الحميد عن نامق كمال في مذكراته: (كان كمال بك أكثر من لفت انتباهي من عدة أشخاص أطلقوا على أنفسهم «العثمانيون الجدد». كان إنساناً مضطرباً جداً، لا تتوافق حياته العائلية مع حياته الخاصة، ولا توافق حياته القلمية مع حياته الفكرية.

يمكن أن تجزم بأن إنساناً ما، يستطيع عمل أمر ما، أو لا يستطيع. لكنك لا تستطيع القطع بهذا الشكل من الأشكال، وأنت تفكر في كمال بك. ذلك لأنه هو

نفسه لا يعرف نفسه، تستطيع القول إنه واحد من الأشخاص النادرين، الذين يحيون حياتين مزدوجتين، كل حياة تختلف عن الأخرى حسب مزاجه. من يعرفونه عن قرب يعرفون أنه: عندما كان على وئام مع السراي كتب (التاريخ العثماني) وعندما فسدت هذه العلاقة، يعرفون أنه قطع رأس التنين بقوله: (كلب هو الذي يأمن لخدمة صياد غير منصف). إنه إنسان متقلب، ربما إنساناً مخلصاً جداً، يمكنك خلال ساعات أن تجعله يفكر مثلك، ولا يمكنك معرفة عدد الساعات أو الأيام التي سيحمل فيها هذه الأفكار)[١].

بعد أن وجد السلطان عبد الحميد أن جماعة العثمانيين الجدد بقيادة مدحت باشا تمارس ضغطاً متواصلاً لقبول أفكارها، وأجبرته على دخول الحرب العثمانية الروسية، عمل على تشتيت أعضاء هذه الجمعية، فبدأ بنفي كبيرها وهو الصدر الأعظم مدحت باشا. بعد ذلك مباشرة، قامت ضد السلطان مؤامرتان لخلعه. واحدة: بقيادة علي سعاوي وهو من أعضاء هذه الجمعية. والأخرى: ماسونية قامت بها جمعية كلانتي سكاليري ـ عزيز.

والمؤامرتان مدعومتان من إنكلترا، وفشلت كلتاهما، لكنهما جعلتا السلطان يتشدد في مراقبة الفكر الوافد والمتأثرين به، وقامت أثناء ذلك أيضاً خلية سرية، من طلاب المدرسة الحربية في استانبول من أصحاب الفكر الجديد، هدفها مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، حيث استطاع أحد أعضاء جمعية (كلانتي ـ عزيز بك) الماسونية وهو (علي شفقتي بك) الفرار إلى نابولي، وإلى جنيف، حيث أصدر بين عامي **١٨٧٩م** و**١٨٨١م**، جريدة مناهضة للحكم العثماني، بعنوان (استقبال) بمعنى المستقبل.

وفي عام **١٨٨٩م** تأسست منظمة طلابية في المدرسة العسكرية الطبية في استانبول، حيث كان بعض الأستاذة هناك يحرضون الطلاب بشكل أو بآخر للقيام بمعارضة الحكم، ونشر أفكار العثمانيين الجدد بين الطلاب، وكان المؤسس لهذه المنظمة إبراهيم تيمو الروماني الذي تأثر بالمحافل الماسونية الإيطالية، وأطلق على هذه المنظمة الاتحاد العثماني، واختاروا يوم الاحتفال بذكرى الثورة الفرنسية المئوية، تاريخاً لإنشاء منظمتهم وجعلوا من أهدافهم مقاومة حكم السلطان عبد الحميد، وتكوين دولة مناسبة لأفكار العصر السياسية، تتخذ من الدول الغربية نموذجاً لها، مثل إنكلترا وفرنسا وألمانيا، والمناداة بالدستور والحرية والديمقراطية[٢].

ومن المدرسة العسكرية الطبية، سرت أفكار جمعية (الاتحاد العثماني) إلى

---

(١) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ٤٧.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٧٩.

مختلف المدارس العليا الأخرى. وكانت خلايا جمعية الاتحاد هذه سرية على نظام جمعية (الكاربوناري) الإيطالية.

ولم تكن الجمعية متعجلة، لا في الدعاية لأفكارها، ولا في الحركة ضد السلطان. حتى إن أحمد رضا بك قد وصل إلى منصب مدير إدارة المعارف في منطقة بورصة، وسافر عام ١٨٨٩م إلى باريس بحجة حضور معرض باريس الدولي، ووصل إلى هناك، وأعلن أنه لن يرجع إلى بلاده. ومكث في فرنسا حوالي ست سنوات، لم تصدر عنه حركة معارضة جديرة بالتسجيل، إلى حين أصدر جريدته (مشورات) عام ١٨٩٥م.

ويذكر مؤسس جمعية الاتحاد ـ وهو إبراهيم تيمو ـ أنه كان يمضي أوقاته في الخارج ـ حتى عام ١٨٩٥م ـ بمحاولة كسب أعضاء جدد لمنظمتهم، لتربيتهم تربية ثورية، ويعقد الاجتماعات السرية، وقراءة الأعمال الأدبية التي ألفها أعضاء جمعية العثمانيين الجدد، مثل نامق كمال وضياء باشا وقراءة منشورات علي شفقتي بك ـ عضو كلانتي الماسونية ـ وكان فاراً في أوروبا[١].

ونتيجة للمراسلات السرية بين أعضاء جمعية الاتحاد العثماني السرية في الداخل وفي الخارج تم الاتفاق على وحدة العمل العسكري والمدني ضد السلطان، وعلى اعتماد اسم (جمعية الاتحاد والترقي) للجناحين المعارضين، العسكري والمدني، اللذين يعملان في إطار الجمعية.

كان اسم الجمعية في الأوساط العسكرية هو (الاتحاد العثماني). وكان أحمد رضا بك ـ ممثل الجناح المدني ـ متأثراً بأفكار الفيلسوف (أوغست كانت)، وكان دستور هذا الفيلسوف هو: (الانتظام والترقي). فأخذ أحمد رضا كلمة (الترقي) استلهاماً من دستور «كانت» واحتفظ العسكريون بمسمى (الاتحاد)، واتفق الجميع أن تكون جمعيتهم باسم (الاتحاد والترقي)[٢].

لقد تغلغلت خلايا (الاتحاد والترقي) في وحدات الجيش، وبين موظفي الدولة من المدنيين، واتحدا في العمل الموحد بعد اتفاق جناحيهما العسكري والمدني في باريس، للعمل الفعلي ضد السلطان عبد الحميد. واستطاعت الجمعية بالفعل إجبار السلطان في ٢٤ يوليو ١٩٠٨م على إعلان الدستور الذي كان قد أمر سابقاً عام ١٨٧٧م بوقف العمل به[٣].

---

(١) انظر: مذكرات إبراهيم تيمو، ص ٩.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٣) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٨١.

وكان الفكر السياسي لجمعية الاتحاد والترقي يؤكد على المفاهيم الطورانية على المستويين الداخلي والخارجي، والطورانية تسمية تشير إلى وطن الأتراك ونسبته إلى جبل توران الواقع في المنطقة الشمالية في إيران[١]، وكان داخل حركة الاتحاد والترقي اتجاه قوي يؤكد أن الترك هم من أقدم أمم الأرض وأعرقها مجداً وأسبقها إلى الحضارة، وأنهم هم والجنس المغولي واحد في الأصل، ويلزم أن يعودوا واحداً ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية، ولم يقتصروا فيها على الترك الذين في سيبيريا وتركستان والصين وفارس والقوقاز والأناضول وروسيا، وكان شعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية إلا إذا كانت تخدم القومية الطورانية، فتكون عندئذ وسيلة لا غاية وهذا يعني أن هذا الاتجاه يدعو إلى إحياء عقائد الترك الوثنية السابقة على أسلافهم، كالوثن التركي القديم (بوزقورت) أو الذئب الأبيض ـ الأسود الذي صوروه على طوابع البريد ووضعوا له الأناشيد، وألزموا الجيش أن يصطف لإنشادها عند كل غروب. وكأنهم يحلون تحية الذئب محل الصلاة، مبالغة منهم في إقامة الشعور العرقي محل الشعور الإسلامي.

ويستشهد هؤلاء برجالاتهم في التاريخ أمثال: أتلاو وطغرك، وجنكيز خان وتيمورلنك.

وقد تطرف هذا الاتجاه في الطورانية، إذ قالوا: (نحن أتراك فكعبتنا طوران). وهم يتغنون بمدائح جنكيز، ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئاً من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب ويرفعوا مستوى نفوسهم بزعيمهم، ويمثل هذا الاتجاه كل من فياكوك الب[٢] ويوسف أقثور وجلال ساهر ويحيى كمال وحمد اللّه صبحي ومحمد أمين بك الشاعر، وكثير من الأدباء والمفكرين وأكثر الطلبة والنشء الجديد.

وكان تأثير اليهود على الطورانية أمراً واضحاً، وفي هذا الصدد يقول نيازي بركس في كتابه (المعاصرة في تركيا): (إن لليهود الأوروبيين واليهود المحليين في الدولة العثمانية في القرنين التاسع عشر والعشرين دوراً ضخماً في إرساء تيار القومية الطورانية، فالعلماء اليهود في الغرب مثل لومالي دافيد وليون كاهون وأرمينيوس فاميري تصدوا للكتابة عن أصول الفكرة القومية الطورانية، كما أن اليهود المحليين في الدولة العثمانية، مثل كراسوا (قراصو) وموئيز كوهين وإبراهيم

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ١٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ١٦٥.

غالانتي، كان لهم ضلع في جمعية الاتحاد والترقي، وبمجرد أن نجحت هذه الجمعية في الإطاحة بحكم عبد الحميد ومن ثم الاستيلاء على السلطة تقدم الصهاينة إلى الاتحاديين برغبتهم في أن تعترف الجمعية بفلسطين وطناً قومياً لليهود. . .)[١].

وقد ذكر نيازي بركس في كتابه السابق اسم اليهودي موئيز كوهين الذي وصفه رينيه بيلو قائلاً:

١ ـ إن كوهين هو من مؤسسي الفكر القومي الطوراني في الدولة العثمانية.

٢ ـ إن كتاب موئيز كوهين الكتاب المقدس للسياسة الطورانية[٢].

كان اليهودي موئيز كوهين نشطاً جداً في التعريف بحركة الاتحاد والترقي في الصحف الأوروبية، فقد كان يعرف بجانب العبرية والتركية، عدة لغات أوروبية، وبدأ هذا بمقال باللغة الفرنسية يحمل عنوان (الأتراك يبحثون عن روح قومي)[٣].

لقد أسهم موئيز كوهين في التخطيط للسياسة العنصرية الطورانية التي سارت عليها جمعية الاتحاد والترقي، وهي السياسة التي شقت شعوب الدولة العثمانية وأوجدت بينها العداوة والبغضاء.

وكان هذا اليهودي لا يكل ولا يمل في نشر الفكر القومي التركي لتفتيت الدولة العثمانية. وكتب ثلاثة كتب اعتمدت عند جمعية الاتحاد والترقي وهي: (ماذا يمكن أن يكسب الأتراك من هذه الحرب؟) و (الطوران) و (سياسة التتريك). كما أسهم هذا الكاتب اليهودي في الكتابة للفكر الكمالي بكتابه (الكمالية) وكتابه (الروح التركية) الذي أرَّخ فيه تطور العنصر التركي[٤].

لقد قامت جمعية الاتحاد والترقي على إثارة المشاعر القومية عند الأتراك، تحت حلم الطورانية، وقد نادت بمفاهيم جديدة مثل: الوطن والدستور والحرية، وكانت هذه المفاهيم غريبة على العثمانيين، وقد ضمت في صفوفها مجموعة من الشباب المثقفين الأتراك، بالإضافة إلى يهود الدونمة وكانت الغاية منها الإطاحة بحكم عبد الحميد الثاني[٥].

❁ ❁ ❁

---

(١) و (٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١١٩.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٠.

(٤) المصدر السابق نفسه، ص ١٢٢.

(٥) انظر: **اليهود والدولة العثمانية**، ص ١٦٨.

الفصل الخامس

الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني

كان السلطان عبد الحميد الثاني شديد الحذر من جمعية الاتحاد والترقي المدعومة باليهود والمحافل الماسونية، والدول الغربية، واستطاع جهاز مخابرات السلطان عبد الحميد أن يتعرف على هذه الحركة ويجمع المعلومات عنها؛ إلا أن هذه الحركة كانت قوية، وقد جاءت مراقبة عبد الحميد لأعضاء هذه الحركة في وقت متأخر، حيث دفعوا الأهالي إلى مظاهرات صاخبة في سلانيك ومناستر واسكوب وسوسن مطالبين بإعادة الدستور، بالإضافة إلى المتظاهرين هددوا بالزحف على القسطنطينية. الأمر الذي أدى بالسلطان إلى الخضوع لمطالب المتظاهرين حيث قام بإعلان الدستور وإحياء البرلمان وذلك في **٢٤ تموز** ١٩٠٨م، وكانت هناك عدة أسباب جعلت من جمعية الاتحاد والترقي تبقي السلطان عبد الحميد الثاني في تلك الفترة على العرش منها:

١ ـ لم تكن في حوزة الاتحاد والترقي القوة الكافية لعزله في عام ١٩٠٨م.

٢ ـ اتباع عبد الحميد الثاني سياسة المرونة معهم، وذلك بتنفيذ رغباتهم بإعادة الدستور.

٣ ـ ولاة العثمانيين لشخص السلطان عبد الحميد، وهذه النقطة واضحة، حيث إن لجنة الاتحاد والترقي لم تكن لها الجرأة الكافية على نشر دعايتها ضد السلطان عبد الحميد الثاني بين الجنود، لأن هؤلاء كانوا يبجلون السلطان[١].

إن الصهيونية العالمية لم تقتصر على الانقلاب الدستوري لعام ١٩٠٨م، بل تعاونت مع جمعية الاتحاد والترقي لتحقيق مكاسب أخرى في فلسطين، وعليه كان لا بد من التخلص من السلطان عبد الحميد الثاني نهائياً، ولذلك دبرت أحداث ٣١ أبريل ١٩٠٩م في استانبول، وترتب على أثرها اضطراب كبير قتل فيه بعض عسكر جمعية الاتحاد والترقي، وعرف الحادث في التاريخ باسم حادث ٣١ مارت.

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية ص ١٦٨.

وقد حدث هذا الاضطراب الكبير في العاصمة بتخطيط أوروبي يهودي، مع رجال الاتحاد والترقي وتحرك على إثره عسكر الاتحاد والترقي من سلانيك ودخل استانبول، وبهذا تم عزل خليفة المسلمين السلطان عبد الحميد الثاني من كل سلطاته المدنية والدينية ثم وجهت إليه جمعية الاتحاد والترقي التهم التالية:

١ ـ تدبير حادث ٣١ مارت.

٢ ـ إحراق المصاحف.

٣ ـ الإسراف.

٤ ـ الظلم وسفك الدماء[١].

مع أن جمعية الاتحاد والترقي العثمانية، تبنت الأفكار الغربية المضادة للإسلام وللفكر الإسلامي؛ لكنها استغلت الدين عند مخاطبتها الناس للتأثير فيهم، وكسب أنصار لهم في معركتهم ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وقد نجحوا في ذلك.

تقول الجمعية في بياناتها إلى العثمانيين:

(أيها العثمانيون: إن مقصدنا هو سلامة الدولة والخلافة، ولم يعد أحد يجهل هذا). (وبعون الباري وهمة الإخوان) و (أيها المسلمون: كفانا أن نقوم بدور المتفرج على سلطان جبار، عديم الإيمان، يسحق القرآن تحت أقدامه، وكذلك يسحق الضمير والإيمان) و (استيقظوا يا أمة محمد) و (الشجاعة الشجاعة يا مسملون، الشجاعة منا والعون من اللّه نصر من اللّه وفتح قريب) و (أيها المسلم الواحد! اقرأ باسم ربك) و (انهض أيها المسلم الموحد! وانقذ دينك، وإيمانك من يد الظالمين وانقذ بذلك نفسك! فهنا شيطان جبار يحمل فوق رأسه تاجاً وفي يده دينك وإيمانك فأنقذ دينك منه وإيمانك أيها الموحد) و (يا أيها المسلمون: إن السلطان عبد الحميد ـ شرعاً ـ ليس بسلطان، ولا خليفة! ومن لا يصدق قولنا هذا: فلينظر في الكتاب والسنة لقد أبرزت جمعيتنا بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأوامر الرسول الموجهة إلى الحكومة والأهالي. لكن السلطان عبد الحميد، أشاح بوجهه بعيداً عن أوامر اللّه، وأوامر الرسول وبالتالي: أثبت ظلمه ولم يخجل من الاعتراض على اللّه؛ لذلك ينبغي على شعبنا، أن يلجأ إلى السلاح ضده، وإذا لم يفعل الشعب هذا، فليتحمل إذاً وزر ما عليه السلطان عبد الحميد من ظلم)[٢].

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٥٠.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٨٢، ٢٨٣.

لقد كان الفكر الحاكم في اتجاهات جمعية (الاتحاد والترقي) هو: الماسونية وهي لا تعترف بالأديان، والفلسفة الوضعية (العقلانية وهي تنفي الدين) والعلمانية (وهي تبعد الدين عن الحياة)، ومع ذلك استخدم الثوار الاتحاديون الدين لمحاربة السلطان عبد الحميد الثاني وافتروا عليه باسم الدين[١].

إنَّ التهم التي وجهت للسلطان عبد الحميد الثاني لا تثبت أمام البحث العلمي، والحجج، والبراهين الدالة على براءته الكلية مما ينسب إليه، فقد أثبتت الأدلة عدم علم السلطان عبد الحميد بحادث ٣١ مارت، كما أنه (من المحال إحراق السلطان عبد الحميد للمصاحف، فهو سلطان معروف بتقواه، ولم يعرف عنه تركه للصلاة وإهماله للتعبد، كما أنه معروف بعدم إسرافه، ولأنه لا يعرف الإسراف فقد كان المال يتوفر معه دائماً، ولذلك فقد أزاح من على كاهل الدولة أعباء كثيرة من ماله الخاص) وعن ظلمه وسفكه للدماء فلم يعرف عن السلطان عبد الحميد هذا، وسفك الدماء لم يكن أبداً ضمن سياسته[٢].

ولم لا يغيب عن بال الانقلابيين الضغط على مفتي الإسلام محمد ضياء الدين بإصدار فتوى الخلع، ففي يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر **نيسان عام ١٩٠٩** اجتمع ٢٤٠ عضواً من مجلس الأعيان في جلسة مشتركة قروا بالاتفاق خلع السلطان عبد الحميد الثاني وكتب مسودة الفتوى الشيخ نائب حمدي أفندي المالي، لكن أمين الفتوى نوري أفندي الذي دعي للاجتماع رفض هذه المسودة وهدد بالاستقالة من منصبه إن لم يجر تعديلاً عليها وأيَّده في التعديل عدد من أنصاره من النواب، فعدل القسم الأخير على أن يقرر مجلس «المبعوثان» عرض التنازل عن العرش أو خلعه.

وإليكم نص الفتوى: الموقع عليها من شيخ الإسلام محمد ضياء الدين أفندي ووافق عليها مجلس «المبعوثين» بالإجماع.

«إذا قام إمام المسلمين زيد فجعل ديدنه طي وإخراج المسائل الشرعية المهمة من الكتب الشرعية وجمع الكتب المذكورة، والتبذير والإسراف من بيت المال وإنفاقه خلاف المسوغات الشرعية، وقتل وحبس وتغريب الرعية بلا سبب شرعي وسائر المظالم الأخرى ثم أقسم على الرجوع عن غيِّه ثم عاد فحنث وأصرَّ على إحداث فتنة ليخل بها وضع المسلمين كافة، فورد من المسلمين من كل الأقطار

---

(١) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٢٨٦.

(٢) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٥٠.

الإسلامية بالتكرار ما يشعر باعتبار زيد هذا مخلوعاً، فلوحظ أن في بقائه ضرراً محققاً وفي زواله صلاحاً، فهل يجب على أهل الحل والعقد وأولياء الأمور أن يعرضوا على زيد المذكور التنازل عن الخلافة والسلطنة أو خلعه من قبلهم الجواب: نعم يجب)[١].

قُرئت هذه الفتوى في الاجتماع المشترك للمجلس الملي فصرخ النواب الاتحاديون نريد خلعه وبعد مداولات تمت الموافقة على خلع السلطان عبد الحميد الثاني[٢].

وبتكليف من جمعية الاتحاد والترقي تم تكوين لجنة لإبلاغ خليفة المسلمين وسلطان الدولة العثمانية عبد الحميد الثاني بقرار خلعه وكانت هذه اللجنة تتألف من:

١ ـ **إيمانويل قراصو**: وهو يهودي إسباني كان من أوائل المشتركين في حركة تركيا الفتاة، وكان مسؤولاً أمام جمعية الاتحاد والترقي عن إثارة الشغب وتحريضه ضد السلطان عبد الحميد الثاني، وتأمين التخابر بين سلانيك واستانبول فيما يتعلق باتصالات الحركة وقراصو هذا محام، عملت جمعية الاتحاد والترقي بنجاح على تعيينه في المجلس النيابي العثماني نائباً عن سلانيك مرة وعن استانبول مرتين، وصفته المصادر الإنكليزية بأنه من قادة الاتحاد والترقي عمل أثناء الحرب مفتشاً للإعاشة، واستطاع أثناء وجوده في هذا المنصب أن يجمع أموالاً كثيرة لحسابه الخاص، ولعب دوراً هاماً في احتلال إيطاليا لليبيا نظير مبلغ من المال دفعته إليه إيطاليا واضطر نتيجة لخيانته للدولة أن يهرب إلى إيطاليا ويحصل على حق المواطنة الإيطالية واستقر في تريسنا حيث مات عام **١٩٢٤م** وكان أثناء وجوده في الدولة العثمانية الأستاذ الأعظم لمحفل مقدونيا الماسوني.

٢ ـ **آرام**: وهو أرمني عضو في مجلس الأعيان العثماني.

٣ ـ **أسعد طوبطاني**: وهو ألباني، نائب في مجلس المبعوثين عن منطقة دراج.

٤ ـ **عارف حكمت**: وهو فريق بحري وعضو مجلس الأعيان، وهو كردي من العراق[٣].

يروي السلطان عبد الحميد في مذكراته تفاصيل هذه الحادثة فيقول: (إن ما

---

(١) و (٢) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٤١٠.

(٣) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٥١.

يحزنني ليس الإبعاد عن السلطة، ولكنها المعاملة غير المحترمة التي ألقاها بعد كلمات أسعد باشا هذه والتي خرجت عن كل حدود الأدب، حيث قلت لهم: إنني أنحني للشرعية ولقرار مجلس المبعوثين ذلك تقدير العزيز العليم، سوى إني أؤكد بأنه لم يكن لي دنى علاقة لا من بعيد ولا من قريب بالأحداث التي تفجرت في ٣١ مارت ثم أردف قائلاً: (إن المسؤولية التي تحملتموها ثقيلة جداً) ثم أشار عبد الحميد إلى قراصو قائلاً: (ما هو عمل هذا اليهودي في مقام الخلافة[١]؟ وبأي قصد جئتم بهذا الرجل أمامي؟)[٢].

لقد اعتبر اليهود والماسونيون هذا اليوم عيداً لهم، وابتهجوا به وساروا بمظاهرة كبيرة في مدينة سلانيك، ولم يكتف الماسونيون بذلك، بل طبعوا صورة هذه المظاهرات في بطاقات بريدية لتباع في أسواق تركيا العثمانية ولمدة طويلة، لقد كان الاتحاديون يفتخرون دائماً بأنهم ماسونيون وقد أدلى رفيق مانياسي زاده بتصريحات إلى صحيفة تميس الفرنسية في باريس عقب نجاح انقلاب حركة الاتحاد والترقي، حيث جاء فيها: (. . .لقد كانت للمساعدات المالية والمعنوية التي تلقيناها من الجمعية الماسونية الإيطالية العون العظيم نظراً لارتباطنا الوثيق بها)[٣].

إن العلاقة بين الصهيونية والماسونية، وضحها السلطان عبد الحميد الثاني في الرسالة التي وجهها إلى الشيخ محمود أبي الشامات شيخه في الطريقة الشاذلية بعد خلعه وذلك في سنة **١٣٢٩هـ**[٤]، وقد جاء في هذه الرسالة:

(إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا عليَّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة (فلسطين)، ورغم إصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف، وأخيراً وعدوا بتقديم مائة وخمسين مليون ليرة إنكليزية ذهباً فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضاً، وأجبتهم بهذا الجواب القطعي: (إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهباً، فلن أقبل بتكليفكم هذا بوجه قطعي، لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد على ثلاثين سنة فلن أُسَوِدَ صحائف المسلمين) وبعد جوابي هذا اتفقوا على خلعي، وأبلغوني أنهم سيبعدونني إلى سلانيك، فقبلت بهذا التكليف الأخير، هذا وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ العالم الإسلامي بهذا العار الأبدي

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢١٩.
(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٠.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢١.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٣.

الناشئ عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة.. فلسطين)[١].

وفي مقال نشر في جريدة (بويوك ضوغو) التركية في **٢ مايو عام ١٩٤٧م** العدد ٦١ يقول (محرم فوزي طوغاي) تحت عنوان (فلسطين والمسألة اليهودية):

(منع السلطان عبد الحميد تحقيق هدف إنشاء دولة يهودية في فلسطين، وكلف هذا المنع السلطان عبد الحميد غالياً وأودى بعرشه، وأدى هذا فيما بعد إلى انهيار الدولة العثمانية كلها، رغم أنه كان يدرك ـ كما قال نظام الدين لبه دنلي أوغلو ـ في دراسته عن دور اليهود في هدم الدولة العثمانية إن: «اليهود يمتلكون قوى كثيرة تستطيع النجاح في العمل المنظم، فالمال كان عندهم، والعلاقات التجارية الدولية كانت في أيديهم كما كانوا يمتلكون الصحافة الأوروبية والمحافل الماسونية»[٢].

إن بعض أقطاب حركة الاتحاد والترقي اكتشفوا فيما بعد أنهم قد وقعوا تحت تأثير الماسونية والصهيونية، فهذا أنور باشا الذي لعب دوراً مهماً في انقلاب عام ١٩٠٩م، يقول في حديث له مع جمال باشا أحد أركان جمعية الاتحاد والترقي: (أتعرف يا جمال ما هو ذنبنا؟ وبعد تحسر عميق قال: «نحن لم نعرف السلطان عبد الحميد، فأصبحنا آلة بيد الصهيونية، واستثمرنا الماسونية العالمية، نحن بذلنا جهودنا للصهيونية فهذا ذنبنا الحقيقي»[٣].

وفي هذا المعنى، يقول أيوب صبري قائد الاتحاديين العسكريين: «لقد وقعنا في شرك اليهود، عندما نفذنا رغباتهم عن طريق الماسونيين لقاء صفيحتين من الليرات الذهبية، في الوقت الذي عرض فيه اليهود ثلاثين مليون ليرة ذهبية على السلطان عبد الحميد لتنفيذ مطالبهم، إلا أنه لم يقبل بذلك»[٤].

ويقول في هذا الصدد برنارد لويس: «لقد تعاون الإخوة الماسونيون واليهود بصورة سرية على إزالة السلطان عبد الحميد، لأنه كان معارضاً قوياً لليهود، إذ رفض بشدة إعطاء أي شبر أرض لليهود في فلسطين»[٥].

وقد علّق نجم الدين أربكان المجاهد الكبير زعيم الحزب الرفاه في تركيا على هذا الموضوع قائلاً: (إن الحركة الماسونية سعت سعياً شديداً لعزل السلطان عبد الحميد، ونجحت في سعيها، وإن أول محفل فتح في تركيا العثمانية كان على يد إميل قره صو وهو صهيوني وقد انضم إليه ضباط منطقة سالونيكا..)[٦].

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٣.

(٢) انظر: السلطان عبد الحميد الثاني، ص ٨٨.

(٣) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢٢٨.

(٤) و (٥) و (٦) المصدر السابق نفسه، ص ٢٢٩.

بعد إبعاد عبد الحميد الثاني من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) كما وصفته هذه الصحف وفي هذا الصدد يقول لوثر: (وبعد إبعاد عبد الحميد من السلطة، عبرت الصحف اليهودية في سلانيك عن غبطتها، وأخذت تزف البشائر بالخلاص من (مضطهد إسرائيل) الذي رفض استجابة طلب هرتزل مرتين، والذي وضع جواز السفر الأحمر الذي يقابل عندنا قانون الأجانب)[١].

واستمرت الحملات الإعلامية المنظمة تشهر تشهيراً عنيفاً بالسلطان عبد الحميد الثاني.

استهدف أعداء الإسلام من تلك الحملات:

١ ـ الدفاع عن أعضاء الاتحاد والترقي، مبررين تصرفهم في إنهاء حكم السلطان عبد الحميد كي تسترد الدولة مكانتها.

٢ ـ تغطية فشل الاتحاد والترقي في حكم الدولة، فقد لجأ رجال الاتحاد والترقي إلى القوة والاستبداد، وأثاروا الفرقة بين سكان البلاد.

٣ ـ إبراز صورة مشرقة لعهد الطاغية الملحد مصطفى كمال أتاتورك وأعوانه، وتبرير تصرفات عملاء اليهود والإنكليز والدول العربية في إلغاء الخلافة والسلطنة وإعلان الجمهورية التركية.

٤ ـ رغبة الصهاينة في تدمير سيرة السلطان عبد الحميد الثاني انتقاماً منه لسياسته المعادية لأهدافهم في فلسطين[٢].

وحقيقة الأمر أنه لولا أصالة الدولة العثمانية وعراقتها وشموخها لأصبحت هباءً منبثاً، وطويت صفحاتها في القرن الثامن عشر أو القرن التاسع عشر، ولكنها ظلت تقاوم عوادي الزمن أكثر من قرنين، ونتيجة للزحف الاستعماري، والكيد اليهودي، والنخر الماسوني، والضعف الشديد الذي انتاب الدولة، وهو ضعف لم يكن السلطان عبد الحميد مسؤولاً عنه، وغدت ممتلكات الدولة نهباً بين الدول الأوروبية الاستعمارية التي كانت تخطط منذ زمن بعيد للقضاء على الدولة[٣].

❁ ❁ ❁

---

(١) انظر: اليهود والدولة العثمانية، ص ٢٣٠.

(٢) انظر: الدولة العثمانية، د. الشناوي (٢/ ١٠٢٣ ـ ١٠١٨).

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١٠٦١).

الفصل السادس

حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية

تولى السلطنة والخلافة بعد السلطان عبد الحميد الثاني أخوه محمد رشاد إلا أنه في الحقيقة لا يملك أي سلطة فعلية، وإنما السلطة أصبحت بيد جمعية الاتحاد والترقي، وغدت الحكومة العثمانية تركية في مضمونها، قومية في عصبيتها، بينما كانت من قبل عثمانية في مضمونها وإسلامية في رابطتها، فقد تأثرت هذه الجمعية بقوة بالأفكار القومية الطورانية التي تدعو إلى تحرير الأتراك، مدعين أن الشعوب الإسلامية في الأناضول وآسيا الوسطى تشكل أمة واحدة، وهي الأفكار التي تطورت أخيراً بمجهودات بعض كتاب الجمعية وعلى رأسها موئيز كوهين اليهودي، والكاتب التركي الشهير ضيا كوك آلب؛ فاتبعت سياسة التتريك وذلك بجعل اللغة التركية هي اللغة الرسمية الوحيدة وإن كانت تقف اللغة العربية إلى جانبها. فتأججت حركة الدعوة إلى القومية العربية في مواجهة حركة التتريك.

كوّن العرب حزب اللامركزية وتعني أن تأخذ الولايات غير التركية استقلالاً ذاتياً وتبقى خاضعة خارجياً لإستانبول، كما كوّنوا جمعيات سرية مثل الجمعية القحطانية برئاسة عبد الكريم الخليل والضابط عزيز علي المصري والجمعية العربية الفتاة التي تشكلت في باريس ١٣٢٩هـ على منهج جمعية تركيا الفتاة، ومن قبل طلاب يدرسون هناك تشبعوا بالأفكار الغربية وخاصة مبادئ العصبية القومية، واستعمل بعضهم المصطلحات الماسونية وكان قصدهم: استقلال العرب التام، وقد نقلوا مقرهم من باريس إلى بيروت ثم إلى دمشق حيث ازداد عدد الأعضاء وخاصة من النصارى العرب.

وتكونت الجمعية الاصطلاحية في بيروت عام ١٣٣١م وتعاونت مع جمعية النهضة اللبنانية في المهجر فقدمتا رسالة مشتركة إلى حكومة فرنسا عام ١٣٣١م التمستا فيها منها احتلال سوريا ولبنان، بينما اتجه بعض مثقفي العراق نحو الإنكليز وأيد بعضهم إقامة إشراف بريطاني على برامج الإصلاح، بل وحتى إلى بسط الحماية البريطانية على البلاد[١].

---

(١) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص ٢٤٩.

ولما بطش الاتحاديون بأعضاء الجمعيات العربية قامت العربية الفتاة بعقد مؤتمر عربي في باريس سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٣م، وقد هيأ الفرنسيون المكان المناسب لعقد الاجتماع وقرر المؤتمرون:

١ ـ ضرورة تنفيذ الإصلاح بسرعة.

٢ ـ إشراك العرب بالإدارة المركزية.

٣ ـ جعل اللغة العربية لغة رسمية في كل الولايات العربية.

٤ ـ جعل الخدمة العسكرية محلية بالنسبة للعرب إلا حين الضرورة.

٥ ـ التعاطف مع مطالب الأرمن.

وأكد الأعضاء بأن حركتهم لادينية وتعادل عدد النصارى مع عدد المسلمين في المؤتمر وكان برئاسة عبد الحميد الزهراوي[١].

وقد علقت فرنسا آمالاً كبيرة على المؤتمر وكان لها العديد من الأنصار في داخله ثم قامت بنشر مقرراته.

ولما قامت الحرب العالمية الأولى (١٣٣٣ ـ ١٣٣٧هـ/ ١٩١٤ ـ ١٩١٨م) دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول الوسط «ألمانيا والنمسا» في حين تمكن الإنكليز «بمراسلات الحسين ـ مكماهون» من جر العرب إلى جانب الحلفاء «بريطانيا وفرنسا وروسيا» فسادت فكرة القومية العربية ووقع الصدام بين العرب والترك[٢].

وسقطت تركيا بعد هزيمتها في الحرب، واحتل الحلفاء واليونان أجزاء منها ووقعت الأستانة تحت سيطرة الإنكليز وأصبح الخليفة كالأسير فيها.

إن خلع السلطان عبد الحميد وقيام جمعية الاتحاد والترقي في الحكم كانت خطوة أساسية نحو تحقيق المخطط الذي تم أثناء الحرب وبعد الحرب في مراحل نلخصها فيما يلي:

١ ـ اتفاق الحلفاء على تقسيم العالم الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية بين الحلفاء، تجلى ذلك في معاهدة سايكس بيكو سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م السرية في الوقت الذي وعدوا فيه العرب بالاستقلال.

وأهم ما تضمنته هذه المعاهدة:

* أن يكون جنوب العراق لبريطانيا، وساحل سوريا الشمالي (لبنان والساحل الشمالي من سوريا) لفرنسا.

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، د. جميل المصري ١/ ١٠٩.

(٢) المصدر السابق نفسه، ١/ ١١٠.

* تتكون دولتان عربيتان شمال العراق وأواسط بلاد الشام وجنوبها، يكون النفوذ في الأولى التي تشمل شمال العراق وشرق الأردن لبريطانيا، والنفوذ في الثانية التي تشكل أواسط سوريا والجزيرة الفراتية لفرنسا.
* تكون فلسطين دولية.
* تكون الأستانة والمضائق (البسفور والدردنيل) لروسيا[١].

٢ - وعد بلفور الذي أصدرته بريطانيا للصهيونية في ٢/ ١١/ ١٩١٧م (محرم ١٣٣٦هـ) بأن تكون فلسطين وطناً قومياً لليهود.

٣ - تسليم تركيا لأبشع حركة تغريب وتدمير للقيم الإسلامية بنقلها من دولة ذات طابع إسلامي إلى دولة غربية الطابع، فيمكن القول بأن الفترة التي بدأت في تركيا بخلع السلطان عبد الحميد وتولي الاتحاديين للحكم هي الفترة التي اجتمعت فيها إدار الحاكمين والاستعمار على تصفية الدولة العثمانية وإبراز طابع الجامعة الطورانية، وإبلاغ العلاقة بين الترك والعرب أشد مراحلها عنفاً وقسوة، مما مهد إلى زوال الدولة والتهام الغرب للأجزاء العربية ومنح اليهود وعد بلفور الذي يعطيهم الحق في إقامة دولة في فلسطين[٢].

فقد قام الاتحاديون بتوجيه الدولة وجهة قومية لا دينية، ولما احتل الإنكليز استانبول (الأستانة) وأصبح الخليفة شبه أسير في أيديهم، أصبح المندوب السامي البريطاني والجنرال هازنجتون (القائد العام لقوات الحلفاء في استانبول) هما أصحاب السيادة الفعلية[٣].

وكانت اللعبة العالمية للقضاء على الخلافة العثمانية نهائياً تستدعي اصطناع بطل تتراجع أمامه جيوش الحلفاء الجرارة وتعلق الأمة الإسلامية اليائسة فيه أملها الكبير وحلمها المنشود، وفي أوج عظمته وانتفاخه ينقض على الرمق الباقي في جسم الأمة فينهشه ويجهز عليها، وهذا أفضل قطعاً من كل الـ «مائة مشروع لتقسيم تركيا» وهدم الإسلام[٤].

وتمت صناعة البطل بواسطة المخابرات الإنكليزية بنجاح باهر، وظهر مصطفى كمال بمظهر المنقذ لشرف الدولة من الحلفاء واليونان الذين احتلوا أزمير بتمكين من بريطانيا سنة ١٣٣٨هـ، وتوغلوا في حقد صليبي دفين في الأناضول،

---

(١) و (٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/ ١١٠.
(٣) المصدر السابق نفسه، ١/ ١١١.
(٤) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص ٥٦٩.

فقام مصطفى كمال باستثارة روح الجهاد في الأتراك ورفع القرآن ورد اليونانيين على أعقابهم، وتراجعت أمامه قوات الحلفاء بدون أن يستعمل أسلحته وأخلت أمامه المواقع، وبدأ مصطفى كمال يطفو على السطح تدريجياً، فقد ابتهج العالم الإسلامي وأطلق عليه لقب الغازي، ومدحه الشعراء وأشاد به الخطباء.

فأحمد شوقي قرنه بخالد بن الوليد في أول بيت من قصيدة مشهورة[١].

اللّه أكبر كم في الفتح من عجب ... يا خالد الترك جدد خالد العرب

ثم يجعله في مصاف صلاح الدين الأيوبي حين يقول:

حذوت حرب الصلاحين في زمن ... فيه القتال بلا شرع ولا أدب

وشبه انتصاره بانتصار بدر فيقول:

يوم كبدر فخيل الحق راقصة ... على الصعيد وخيل اللّه في السحب

تهنئة أيها الغازي وتهنئة ... بآية الفتح تبقى آية الحقب[٢]

فكان الناس إذا قارنوا كفاح مصطفى كمال المظفر باستسلام الخليفة وحيد الدين محمد السادس القابع في الأستانة مستكيناً لما يجري عليه من الذل، كبر في نظرهم الأول بمقدار ما يهون الثاني، وزاد في سخطهم على الخليفة ما تناقلته الصحف بإهدار دم مصطفى كمال واعتباره عاصياً متمرداً، ولم يكن مصطفى كمال في نظرهم إلا بطلاً مكافحاً يغامر بنفسه لاستعادة مجد الخلافة الذي خيل إليهم أن الخليفة يمرغه في التراب تحت أقدام الجيوش المحتلة.

ولكن لم يلبث غير قليل حتى ظهر على حقيقته، صنيعة لأعداء الإسلام من اليهود والنصارى، وخاصة إنكلترا التي رأت أن إلغاء الخلافة ليس بالأمر الهين، وأن ذلك لا يمكن أن يتم دون اصطناع بطل، وإعطائه صورة عظيمة وإظهار هالة حوله، وتصويره وكأن الكرامات تجري على يديه، وعندها يمكن توجيه الطعنة على يديه بلا ألم عميق، إذ الشعور قد تخدّر من نشوة الانتصارات الزائفة، فالحلفاء أنفسهم هم الذين اصطنعوا القلاقل وطلبوا من السلطان إخمادها واقترحوا اسم مصطفى كمال لتلك المهمة ليصبح محط آمال الناس وموضع تقدير ضباط الجيش، فتتصاعد مكانته وهيبته وتتدهور سمعة الخليفة وينحط مركز الخلافة في أعين الناس، فالألاعيب الإنكليزية لا تدرك بسهولة[٣].

لقد استطاعت المخابرات الإنكليزية أن تجد ضالتها المنشودة في شخصية

---

(١) و (٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي ١/ ١١١.

(٣) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

مصطفى كمال، وكانت تلك العلاقة بين المخابرات الإنكليزية ومصطفى كمال بواسطة رجل المخابرات الإنكليزي «أرمسترونج» الذي تعززت علاقته به في فلسطين وسوريا، عندما كان مصطفى كمال قائداً هناك في الجيش العثماني.

نجد أرمسترونج في كتابه عن مصطفى كمال يضع إصبعه بصراحة على بداية العقد النفسية عند مصطفى كمال حينما يشير إلى الزواج الثاني لوالدته من أحد الروديسيين الميسورين، وانقطاعه عن زيارتها ولجوئه إلى أصحابه من الرهبان المقدونيين الذين تلقفوه؛ فلقنوه مبادئ اللغة الفرنسية مع صديقه المقدوني «فتحي» فالتهما كتب فولتير وروسو ومؤلفات هوبز وجون ستيوارت مل وغيرها من الكتب الممنوعة، حتى أصبح ينظم الشعر الملتهب بمشاعر القومية ويخطب في ملئه بالكلية العسكرية، فيحدثهم عن فساد السلطان قبل أن يتجاوز العشرين من العمر ثم انتقل إلى استانبول وانغمس في ملاهيها وحاناتها، وراح يشرب ويقامر ويغازل قبل أن يسجن لانضمامه إلى «جمعية الوطن»[١].

ويشهد أرمسترونج بعلاقة الاتحاد والترقي بالدونمة والماسونية في معرض تأريخه لحياة مصطفى كمال فيذكر كيف «دعي لحضور أحد اجتماعاتها في بيوت بعض اليهود المنتمين للجنسية الإيطالية، والجمعيات الماسونية الإيطالية إذ أن جنسيتهم هذه تحميهم بحكم المعاهدات والامتيازات الأجنبية، وقد دأب الاتحاديون على الاحتماء بحصانة اليهود، فكانوا يجتمعون في بيوتهم آمنين من كل خطر، وكان بعضهم كفتحي المقدوني صديق كمال القديم قد انضم إلى جماعة الماسون (البنائين الأحرار)، ويروي كيف استعانوا على تأليف جمعيتهم الثورية وتنظيمها باقتباس أساليب المنظمات الماسونية، وصاروا يتلقون الإعانات المالية الوافرة من مختلف الجهات ويتصلون باللاجئين السياسيين الذين نفاهم السلطان إلى خارج البلاد.

ويكشف أرمسترونج كيف وقع الاختيار على مصطفى كمال وحده من دون بقية أقرانه، لتنفيذ آخر خطوة في الخطة البريطانية فيقول: «إن طبيعته كانت تميل إلى أن يكون الآمر الناهي، فلم يظهر أي احترام لزعماء الاتحاديين وتشاجر مع: أنور وجمال وجاويد اليهودي الأصل، ونيازي الألماني المتوحش، وطلعت الدب الكبير الذي كان موظفاً صغيراً في مصلحة البريد».

وبعد أن تحول مصطفى كمال من مجرد ضابط صغير ثائر على الأوضاع إلى

(١) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٦٥، ٢٦٦.

قائد عسكري يملك رصيداً من الأمجاد والانتصارات لقب بـ «الغازي» بفضل نفوذ رجال الاستخبارات البريطانية، ويذكر أرمسترونج صفحة جديدة من حياته الخاصة بعد كشفه عن مجونه وفسقه، وأهليته لنسف الخلافة الإسلامية، فيتطرق إلى زواجه الأسطوري من «لطيفة» تلك الفتاة الأميرية الموسرة التي عادت لتوها من باريس لتقدم خبراتها الإدارية وثقافتها العصرية وإجادتها لعدة لغات، فضلاً عن أنوثتها وسحرها مع قصر أبيها الفاخر في أزمير إلى الغازي مصطفى كمال الذي أوقعته في حبائلها بتمنعها ودلالها، فتخلص من «فكرية» التي أرسلها إلى ميونخ للعلاج من المرض الذي نقله إليها، ثم دبر أمر انتحارها، كما تخلص من «صالحة» ليقوم بزواج خاطف من «لطيفة» بعد أن أفسد حياة «سعادت» وعشرات البنات والنساء والغلمان وغيرهم، كما تؤكد ذلك الوثائق التي تركها أحد زملائه من الضباط المتقاعدين[1]. وقد كانت لطيفة نفسها ضحية من ضحاياه فيما بعد، حيث طلقها بقرار وزاري وتركها فريسة للأمراض والأوجاع بعد تحذيرها للصمت عن كل شذوذه، ولم تبق بجانبه إلا «عفت» تلك الفنانة التي كانت له معلمة ومؤرخة، حتى استطاعت أن تقود ذلك الوحش ـ على حد تعبيره ـ بأسلوب الخضوع والعبودية له.

ولكن «لطيفة» هانم أشاكي كيل لم يمنعها قانون حماية مصطفى كمال من أي هجوم أو نقد من التلميح بين سطور مذكراتها التي نشرتها صحيفة «الحرية» التركية في حزيران «يونيو» عام **١٩٧٣** من تسليط بعض الأضواء على حياة أتاتورك الخاصة وإفراطه في الشرب، محاولة إلقاء المسؤولية على أصحابه وزملائه أمثال: «قلج علي» و «نوري جنكر» و «رجب هدي» الذين كانوا يتعمدون إهدار وقته وهم مجموعة من القتلة والأشقياء المعروفين الذين ضمهم إلى حاشيته ولحراسته، وأصبح بعضهم يرفع الكلفة معه إلى أبعد الحدود بعد تنفيذهم للعديد من المهمات الإجرامية التي كلفهم بها للتخلص من بعض خصومه[2].

إن تلك الأخلاق العفنة التي اشتهر بها مصطفى كمال لا تستغرب منه خصوصاً عندما نعلم أن أصله من يهود الدونمة.

فقد جاء في دائرة المعارف اليهودية: «لقد أكد الكثير من يهود سلانيك أن كمال أتاتورك كان أصله من الدونمة، وهذا أيضاً رأي الإسلاميين المعارضين لكمال أتاتورك، ولكن الحكومة تنكر ذلك»[3].

---

(١) و (٢) انظر: صحوة الرجل المريض، ص ٢٦٧.

(٣) انظر: يهود الدونمة، د. النعيمي، ص ٨٧ ـ ٨٩.

ويعلق توينبي على نسب مصطفى كمال قائلاً: «إن دماً يهودياً يجري في عروق الأسرة الكمالية. فقد كانت سلانيك مهبط اليهود أيام محنتهم، وقد درؤوا عقائدهم باعتناق الإسلام، ولكن طبائع مصطفى كمال ولون عينه وتكوينه الجسمي يبعده عن أن يكون متأثراً بدماء يهودية»(١).

ويقول أسامة عيناي:

«إن الدونمة يعتزون كثيراً بأتاتورك ويعتقدون اعتقاداً راسخاً أنه منهم، وحجتهم في ذلك أن أتاتورك أسفر عن نياته ضد الإسلام حين تولى الحكم»(٢).

إن أفعال مصطفى كمال دلت على بغضه للإسلام فيما بعد، فبينما كان في عام **١٣٣٧هـ** عندما انتصر على اليونان في أنقرة يعلن أمام الشعب: «إن كل التدابير التي ستتخذ لا يقصد منها غير الاحتفاظ بالسلطنة والخلافة وتحرير السلطان والبلاد من الرق الأجنبي»(٣)، نجده بعد أن تمكن من العباد والبلاد في عام **١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م** تعلن الجمعية الوطنية التركية بزعامته عن قيام الجمهورية التركية وانتخب مصطفى كمال أول رئيس لها، وتظاهر بالاحتفاظ مؤقتاً بالخلافة فاختير عبد المجيد ابن السلطان عبد العزيز خليفة بدلاً من محمد السادس الذي غادر البلاد على بارجة بريطانية إلى مالطة ولم يمارس السلطان عبد المجيد أي سلطات للحكم(٤).

كان الخليفة عبد المجيد رجلاً مهذباً مثقفاً كما يليق بسلالة بني عثمان، وقد أصبح في نظر الأتراك الصلة الحية بالتراث والتاريخ العثماني الإسلامي، وكانت جماهير استانبول تهرع لإلقاء نظرة عليه وتحيته كل جمعة وهو في طريقه لأداء الفريضة، وكان الخليفة مدركاً تمام الإدراك مكانة منصبه السامية، وعراقة السلالة التي ينتمي إليها، فكان مرة يرتدي عمامة محمد الفاتح، وثانية يتقلد سيف السلطان سليمان القانوني.

استشاط مصطفى كمال غيظاً، فما كان ليطيق أن يرى أو يسمع عن محبة الناس وتعلقهم بآل عثمان وبالخلافة والسلطنة، فمنع الخليفة من الخروج للصلاة ثم خفض مخصصاته للنصف، وحكم مصطفى كمال البلاد بالحديد والنار، وضمن تأييد الدول العظمى لسياسته التعسفية.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٩٠.

(٢) انظر: يهود الدونمة، د. النعيمي، ص ٩٤.

(٣) و (٤) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/ ١١٢.

دعا مصطفى كمال الجمعية التأسيسية إلى اجتماع في **٣ آذار/ مارس ١٩٢٤م**، وكان على ثقة تامة من أن أحداً في الجمعية التأيسيسة ـ التي لم يبق منه سوى اسمها ـ لن يجرؤ على معارضته، وطرح على الجمعية مشروع قرار بإلغاء الخلافة التي أسماها «هذا الورم من القرون الوسطى»[١] وقد أجيز القرار الذي شمل نفي الخليفة في اليوم التالي دون مناقشة، وانطفأت على يد مصطفى كمال شعلة الخلافة التي كان المسلمون طيلة القرون يستمدون من بقائها رمز وحدتهم واستمرار كيانهم[٢].

لقد كان مصطفى كمال ينفذ مخططاً مرسوماً له في المعاهدات التي عقدت مع الدول الغربية، فقد فرضت معاهدة لوزان سنة **١٣٤١هـ/ ١٩٢٣م** على تركيا فقبلت شروط الصلح والمعروفة بشروط كرزون الأربع «وهو رئيس الوفد الإنكليزي في مؤتمر لوزان» وهي:

١ ـ قطع كل صلة لتركيا بالإسلام.
٢ ـ إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً.
٣ ـ إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد ومصادرة أموال الخليفة.
٤ ـ اتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم[٣].

وعم الاستياء الشديد العالم الإسلامي، فشوقي الذي مدحه سابقاً بكى الخلافة فقال:

عادت أغاني العرس رَجْعَ نواح ... ونُعيتِ بين معالم الأفراح
كُفِنتِ في ليلِ الزفاف بثوبه ... ودُفنتِ عند تَبَلج الإصباحِ
ضَجَّتْ عليك مآذن ومنابر ... وبكت عليك ممالكُ ونواحِ
الهندُ والهة، ومصر حزينة ... تبكي عليك بمدمع سحاحِ
والشام تسأل، والعراق وفارسٌ ... أمَحا من الأرض الخلافة ماحِ
يا للرجال لحرةٍ موءودة ... قُتِلتْ بغير جريرة وَجُناحِ

ثم انبرى شوقي يوجه التقريع والنقد الشديد إلى أتاتورك الذي يريد بجرة قلم وبالحديد والنار أن ينقل الأتراك رغم أنوفهم من آسيا إلى أوروبا، ومن جذورهم العميقة في الشرق إلى الانتظار على أبواب الغرب:

بَكتِ الصلاة وتلك فِتنةُ عابثٍ ... بالشرع عربيدِ القضاء وَقاحِ

---

(١) و (٢) انظر: التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي لمحمد أبو غدة، ص ١١٠.
(٣) انظر: تاريخ الدولة العثمانية، د. علي حسون، ص ٢٨٧.

أفتى خُزَعبلة وقال ضلالة ... وأتى بكفر في البلاد بواحِ
إن الذين جرى عليهم فِقْهُهُ ... خُلِقوا لفِقهِ كتيبة وسِلاحِ
نَقَل الشرائعَ والعقائد والقُرى ... والناسَ نَقْلَ كتائب في الساحِ
تركته كالشبح المولة أمة ... لم تَسلْ بَعْدُ عبادة الأشباحِ
غرته طاعات الجموع ودولة ... وَجَد السوادِ لها هوى المرتاح[1]

ولم يترك شوقي أن يبين سبب ظهور هؤلاء المتسلطين إلى جهل الشعوب واستسلامها للطغاة المستبدين فقال:

مجدُ الأمور زواله في زَلةٍ ... لا ترْج لا سمك بالأمور خلودا
خلعته دون المسلمين عِصابةٌ ... لم يجعلوا للمسلمين وجودا
يقضون ذلك عن سواد غافل ... خُلِقَ السواد مضللاً ومَسودا
إني نظرت إلى الشعوب فلم أجد ... كالجهل داءً للشعوب مُبيْدا
وإذا سبي الفردُ المسلط مجلساً ... ألفيت أحرار الرجال عبيداً[2]

لقد نفذ مصطفى كمال المخطط كاملاً وابتعد عن الخطوط الإسلامية ودخلت تركيا لعمليات التغريب البشعة؛ فأُلغيت وزارة الأوقاف سنة **١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م**، وعهد بشؤونها إلى وزارة المعارف، وفي عام **١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م** أغلقت المساجد وقضت الحكومة في قسوة بالغة على كل تيار ديني وواجهت كل نقد ديني لتدابيرها بالعنف، وفي عام **(١٣٥٠ ـ ١٣٥١هـ/ ١٩٣١ ـ ١٩٣٢م)** حدد عدد المساجد ولم تسمح بغير مسجد واحد في كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها ٥٠٠ متر، وأعلن أن الروح الإسلامية تعوق التقدم.

وتمادى مصطفى كمال في تهجمه على المساجد فخفض عدد الواعظين الذين تدفع لهم الدولة أجورهم إلى ثلاثمائة واعظ، وأمرهم أن يفسحوا في خطبة الجمعة مجالاً واسعاً للتحدث عن الشؤون الزراعية والصناعية وسياسة الدولة وكيل المديح له. وأغلق أشهر جامعين في استانبول، وحول أولهما وهو مسجد آيا صوفيا إلى متحف، وحوّل ثانيهما وهو مسجد الفاتح إلى مستودع.

أما الشريعة الإسلامية فقد استبدلت وحلّ محلها قانون مدني أخذته حكومة تركيا عن القانون السويسري عام **١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م**. وغيّرت التقويم الهجري

(١) انظر: التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، ص ١١٢.
(٢) انظر: الشوقيات ديوان أحمد شوقي ١/ ١١٢.

واستخدمت التقويم الغريغوري الغربي، فأصبح عام **١٣٤٥هـ** ملغى في كل أنحاء تركيا وحل محله عام **١٩٢٦م**.

* وفي دستور عام **١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م** أغفل النص أن تركيا دولة إسلامية، وغير نص القسم الذي يقسمه رجال الدولة عند توليهم لمناصبهم، فأصبحوا يقسمون بشرفهم على تأدية الواجب بدلاً من أن يحلفوا بالله كما كان عليه الأمر من قبل.
* وفي عام **١٩٣٥م** غيرت الحكومة العطلة الرسمية فلم تعد الجمعة بل أصبحت العطلة الرسمية للدولة يوم الأحد وأصبحت عطلة نهاية الأسبوع تبدأ منذ ظهر يوم السبت وتستمر حتى صباح يوم الاثنين.
* وأهملت الحكومة التعليم الديني كلية في المدارس الخاصة، ثم تم إلغاؤه بل إن كلية الشريعة في جامعة استانبول بدأت تقلل من أعداد طلابها التي أغلقت عام **١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م**.
* وأمعنت حكومة مصطفى كمال في حركة التغريب فأصدرت قراراً بإلغاء لبس الطربوش وأمرت بلبس القبعة تشبهاً بالدول الأوروبية(١).
* وفي عام **١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م** بدأت الحكومة تفرض إجبارياً استخدام الأحرف اللاتينية في كتابة اللغة التركية بدلاً من الأحرف العربية. وبدأت الصحف والكتب تصدر بالأحرف اللاتينية وحذف من الكليات التعليم باللغة العربية واللغة الفارسية، وحرم استعمال الحرف العربي لطبع المؤلفات التركية، وأما الكتب التي سبق لمطابع استانبول أن طبعتها في العهود السالفة، فقد صدرت إلى مصر، وفارس والهند، وهكذا قطعت حكومة تركيا ما بين تركيا وماضيها الإسلامي من ناحية، وما بينها وبين المسلمين في سائر البلدان العربية والإسلامية من ناحية أخرى(٢).
* وأخذ أتاتورك ينفخ في الشعب التركي روح القومية، واستغل ما نادى به بعض المؤرخين من أن لغة السومريين أصحاب الحضارة القديمة في بلاد ما بين النهرين كانت ذات صلة باللغة التركية فقال: بأن الأتراك هم أصحاب أقدم حضارة في العالم؛ ليعوضهم عما أفقدهم إياه من قيم بعد أن حارب كل نشاط إسلامي، وخلع مصطفى كمال على نفسه «أتاتورك» ومعناه أبو الأتراك(٣).
* وعملت حكومته على الاهتمام بكل ما هو أوروبي فازدهرت الفنون وأقيمت التماثيل لأتاتورك في ميادين المدن الكبرى كلها، وزاد الاهتمام بالرسم والموسيقى

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/ ١١٥.
(٢) و (٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/ ١١٥.

ووفد إلى تركيا عدد كبير من الفنانين أغلبهم من فرنسا والنمسا[١].

* وعملت حكومته على إلغاء حجاب المرأة وأمر بالسفور، وألغت قوامة الرجل على المرأة وأطلق لها العنان باسم الحرية والمساواة، وشجعت الحفلات الراقصة والمسارح المختلطة والرقص.

* وفي زواجه من لطيفة هانم ابنة أحد أغنياء أزمير الذين كانوا على صلة كبيرة مع اليهود من سكان أزمير، أجرى مراسم الزواج على الطريقة الغربية كي يشجع على نبذ العادات الإسلامية، واصطحبها وطاف بها أرجاء البلاد وهي بادية المفاتن تختلط مع الرجال وترتدي أحدث الأزياء المعينة على التبرج الصارخ[٢].

* وأمر بترجمة القرآن إلى اللغة التركية ففقد كل معانيه ومدلولاته، وأمر أن يكون الأذان باللغة التركية[٣].

* عمل على تغيير المناهج الدراسية وأعيد كتابة التاريخ من أجل إبراز الماضي التركي القومي، وجرى تنقية اللغة التركية من الكلمات العربية والفارسية، واستبدلت بكلمات أوروبية لاتينية قديمة.

* وأعلنت الدولة عزمها في التوجه نحو أوروبا وانفصلت عن العالم الإسلامي والعربي، وأمعنت حكومتها في استدبار الإسلام حتى حاربت بقسوة أي محاولة ترمي إلى إحياء المبادئ الإسلامية[٤].

وكانت خطوات مصطفى كمال هذه بعيدة الأثر في مصر وأفغانستان وإيران والهند الإسلامية، وتركستان، وفي كل مكان من العالم الإسلامي إذ أتاحت الفرصة لدعاة التغريب وخدام الثقافة الاستعمارية أن ينفذوا إلى مكان الصدارة وأن يضربوا المثل بتركيا في مجال التقدم والنهضة المزعومة، فقد هللت له صحف مصر ـ الأهرام، والسياسة، والمقطم ـ ذات الاتجاهات المضادة للإسلام، والمدعومة بالنفوذ الغربي واليهودي والماسوني.

لقد بررت تلك الصحف تصرفات مصطفى كمال أتاتورك ووافقت عما ابتدعه، ونشرت له أقوال: «ليس لتركيا الجديدة علاقة بالدين» وأنه ـ أي مصطفى كمال: «ألقى القرآن ذات يوم من يده فقال: إن ارتقاء الشعوب لا يصلح أن ينفذ بقوانين وقواعد سنت في العصور الغابرة».

---

(١) انظر: المسألة الشرقية للدسوقي، ص ٤٢٣ ـ ٤٣٢.

(٢) و (٣) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/ ١١٦.

(٤) انظر: الاتجاهات الوطنية لمحمد حسين، ٢/ ١٠٠.

لقد كانت حكومة تركيا العلمانية الكمالية ـ هي كما وصفها الأمير شكيب أرسلان ـ ليست حكومة دينية من طراز فرنسا وإنكلترا فحسب، بل هي دولة مضادة للدين كالحكومة البلشفية في روسيا سواء بسواء، إذ أنه حتى الدول اللادينية في الغرب بثوراتها المعروفة لم تتدخل في حروف الأناجيل وزي رجال الدين وطقوسهم الخاصة ولم تلغ الكنائس[١].

وكان للإعلام اليهودي دور كبير في الترويج لهذه الردة، مثلما كان له دوره البارز في تشجيع أتاتورك على البطش بأية معارضة إسلامية، وكانت تزين له أن ما يقوم به من المذابح والوحشية ضد المسلمين ليست سوى معارك بطولية، كما كان منبراً لكل دعوات التشبه بالغرب الصليبي والمناداة بالحرية الفاجرة للمرأة التركية، والترويج لفنون الانحلال الخلقي معتبرة أن شرب الخمر والمقامرة والزنا ليست إلا مظاهر للتمدن والتحضر[٢].

إن الحقيقة المرة أن مصطفى كمال أصبح نموذجاً صارخاً للحكام في العالم الإسلامي وكان لأسلوبه الاستبدادي الفذ أثره في سياسات من جاء بعده منهم، كما أنه أعطى الاستعمار الغربي مبرراً كافياً للقضاء على الإسلام، فإن فرنسا مثلاً بررت حرصها على تنصير بلاد الشمال الإفريقي وإخراجها من دينها وعقيدتها وإسلامها بأنه لا يجب عليها أن تحافظ على الإسلام أكثر من الأتراك المسلمين أنفسهم[٣].

لقد أصبح مصطفى كمال زعيماً روحياً لكثير من الحكام الذين باعوا آخرتهم بدنياهم الزائلة.

قاد المسلمون ثورات مسلحة ضد الحكم العلماني التركي المعادي للإسلام، وظهرت أهم الثورات في المنطقة الجنوبية الشرقية عام **١٣٤٤هـ**، ثم في منيمين عام **١٣٤٩هـ** وقد قمعها الكماليون بشدة منقطة النظير، وذهب ضحيتها عدد كبير من العلماء وأهملت المنطقة اقتصادياً وعلمياً.

وقامت حركة النور بزعامة الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي وتلاميذه من بعده، وقد كتب العديد من الرسائل الإسلامية تحت عنوان «رسائل النور» في سبيل التوعية الإسلامية ومقاومة مبادئ الكماليين والعلمانية، ولم تعمد حركته إلى حمل السلاح واقتصر جهادها على اللسان. وقد حاول أتاتورك استمالته وناقشه واستنكر دعوته الناس إلى الصلاة مدعياً أنها تثير الفرقة بين أعضاء المجلس فأجابه:

---

(١) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص ٥٧٣.

(٢) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/ ١١٧.

(٣) انظر: العلمانية، د. سفر الحوالي، ص ٥٧٣.

«إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإسلام إنما هي في الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود»[١].

فسجنه ثم نفاه بعد أن اتهمه بمؤامرة لقلب نظام الحكم، ولكن دعوته استمرت في الانتشار سراً بين صفوف الجامعيين ومعسكرات الجيش ودوائر الدولة، ومثل للمحاكمة مرة أخرى بتهمة وصفه أتاتورك بالدجال، فوقف أمام المحكمة وقال:

«إنني لا عجب كيف يتهم أناس يتبادلون فيما بينهم تحية القرآن وبيانه ومعجزاته باتباعهم للسياسة والجمعيات السرية، على حين يحق للمارقين الافتراء على القرآن وحقائقه في وقاحة وإصرار، ثم يعد ذلك أمراً مقدساً لأنه حرية. أما نور القرآن الذي يأبى إلا أن يسع في أفئدة ملايين المسلمين المرتبطين بدستوره، فهو خطورة ينهال عليها جميع ألفاظ الشر والخبث والسياسة.

اسمعوا يا من بعتم دينكم بدنياكم وتنكستم في الكفر المطلق، إنني أقول بمنتهى ما أعطاني اللّه من قوة: افعلوا ما يمكنكم فعله فغاية ما نتمناه أن نجعل رؤوسنا فداءً لأصغر حقيقة من حقائق الإسلام...»[٢].

فأعيد إلى منفاه وبقي حتى عام ١٣٦٧هـ حين بدأت الحكومة تضطر للاستجابة لمطالب الشعب المسلم بخصوص النشاط الديني[٣].

لقد تجلت سياسة أتاتورك العلمانية في برنامج حزبه (حزب الشعب الجمهوري لعام **١٣٤٩هـ** مرة، وعام **١٣٥٥هـ** مرة ثانية، والتي نص عليها الدستور التركي وهي المبادئ الستة التي رسمت بشكل ستة أسهم على علم الحزب وهي: القومية، الجمهورية، الشعبية، العلمانية، الثورة، سلطة الدولة[٤].

توفي أتاتورك عام **١٣٥٦هـ** بعد أن حقق علمانية تركيا رغم أنف المسلمين. لقد أصيب مصطفى كمال قبل وفاته بسنين بمرض عضال في الكلية لم يعرف كنهه، وكان يتعرض لآلام مبرحة مزمنة لا تطاق، كانت السبب في إدمان شرب الخمر مما أدى إلى إصابته بتليف الكبد، والتهاب في أعصابه الطرفية، وتعرضه لحالات من الكآبة والانطواء، لذلك كان هذا الديكتاتور مثلاً فريداً في القسوة والتنكيل والأنانية المدمرة[٥].

---

(١) انظر: حاضر العالم الإسلامي، ١/١١٧.
(٢) و (٣) المصدر السابق نفسه، ١/١٢٢.
(٤) المصدر السابق نفسه ١/١١٦.
(٥) انظر: المسألة الشرقية، محمد ثابت الشاذلي، ص ٢٤٢.

الفصل السابع

أسباب سقوط الدولة العثمانية

● **تمهيد:**

إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة، جامعها هو: الابتعاد عن تحكيم شرع اللّه تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد عن شرع اللّه لتبدو على الحياة في وجهتها الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتوالى وتترى على الناس حتى تمس جميع شؤون حياتهم.

قال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كان في ابتعاد أواخر سلاطين الدولة العثمانية عن شرع اللّه تعالى آثاره على الأمة الإسلامية؛ فتجد الإنسان المنغمس في حياة المادة والجاهلية مصاباً بالقلق والحيرة والخوف والجبن يحسب كل صيحة عليه، يخشى من النصارى ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشموخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعداء من أثر المعاصي في قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ [طه: ١٢٤].

وقد أصيبت الشعوب الإسلامية في مراحل الدولة العثمانية الأخيرة بالتبلد وفقد الإحساس بالذات، وضعف ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، وأصابهم ما أصاب بني إسرائيل عندما تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قال تعالى: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ * كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فإن أي أمة لا تعظم شرع اللّه أمراً ونهياً تسقط كما سقط بنو إسرائيل. قال رسول اللّه ﷺ: «**كلا واللّه لتأمرن بالمعروف ولتَنْهَوُنَّ عن المنكر ولتأخُذُنّ على يد**

الظالم ولتأطُرنَّه على الحق أطراً، ولتقصُرُنهُ على الحق قصراً، أو ليضربن اللَّه بقلوب بعضكم بعضاً، ثم ليلعَنكم كما لعنهم»[١].

لقد تحققت في الدولة العثمانية سنة اللَّه في تغيير النفوس من الطاعة والانقياد إلى المخالفة والتمرد على أحكام اللَّه ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما أن الشعوب التي تخضع للحكام الذين تباعدوا عن شرع اللَّه تذل وتهان حتى تقوم أمام من خالف أمر اللَّه تطلب العون من إخوانهم في العقيدة.

إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع اللَّه وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأعراض للاغتصاب بسبب تعطل أحكام اللَّه فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم، وأصبحت شوكة الأعداء من الروس والإنكليز والبلغار والصرب وغيرهم تقوى وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر اللَّه عن السلاطين والأمة العثمانية، وحرموا التمكين، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وتوالت المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

إن من سنن اللَّه تعالى المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي اللَّه تعالى ممن يعرفونه سلط اللَّه عليهم من لا يعرفونه؛ ولذلك سلط اللَّه النصارى على المسلمين في الدولة العثمانية.

إن الذنوب التي يهلك اللَّه بها الدولة، ويعذب بها الأمم قسمان:

١ ـ معاندة الرسل والكفر بما جاءوا به.

٢ ـ كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس، وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى والثروة، فهذا كله من الكفر بنعمة اللَّه، واستعمالها في غير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العام.

والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مارسه أواخر سلاطين الدولة العثمانية وأمرائهم[٢].

---

(١) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف رقم الحديث ٤٦٧٠.

(٢) انظر: دولة الموحدين لعلي محمد الصلابي، ص ١٧٠.

إن الدولة العثمانية في بداية أمرها كانت تسير على شرع الله في كل صغيرة وكبيرة، ملتزمة بمنهج أهل السنة في مسيرتها الدعوية والجهادية، آخذة بشروط التمكين وأسبابه كما جاءت في القرآن والسنة النبوية الشريفة. أما في أواخر عهدها فقد انحرفت عن شروط التمكين، وابتعدت عن أسبابه المادية والمعنوية، قال تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ * وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٥، ٦٥].

فكانت الدولة الإسلامية العثمانية في بداية أمرها مستوعبة لتلك الشروط، أما في أواخر عهدها فقد أصاب تلك الشروط انحراف عن مفاهيمها الأصلية فمثلاً:

أولاً

من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء

فكانت الدولة في عصورها المتقدمة عاملة بقول الله تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقول الله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

ويقول رسول الله ﷺ: «**أوثق عُرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله**»[١].

أما في عصورها المتأخرة وخصوصاً في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين فقد أصيب مفهوم الولاء والبراء بالانحراف، نتيجة للجهل الذريع الذي خيم على أغلب أقاليم الدولة العثمانية والبلدان الإسلامية، ولغياب العلماء الربانيين الذين ينيرون للأمة دروبها، ويأخذون بزمامها إلى الطريق المستقيم. وكان الحكام والسلاطين يصانعون الأعداء من الكافرين ويتولونهم من دون المؤمنين؛ حيث كان هؤلاء الكافرون على جانب عظيم من القوة المادية، والمسلمون في المقابل على العكس تماماً من الضعف؛ فقد ساعد الواقع الأليم الذي كان يعيشه المسلمون على زعزعة هذه العقيدة[٢].

(١) صحيح الجامع الصغير (٢٣/٣٤٣، ح ٢٥٣٦).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، لعلي الزهراني (١/١٤٢).

فالواقع المليء بكل صور الانحطاط من فقر وضعف وجهل ومرض وخرافة في مقابل الواقع الأوروبي مثلاً كان عاملاً من عوامل إضعاف عقيدة الولاء والبراء، ومع ذلك لا يجوز لنا أبداً أن نبرر لهؤلاء المنبهرين انبهارهم بواقع الكافرين؛ إذ لو كان إيمانهم صادقاً، وعقيدتهم راسخة لم تجرفهم أهواء الكافرين ولم تتقاذفهم أمواج المادة والقوة، كما كان حال الجيل الأول رضي اللَّه عنهم الذي استعلى بدينه وعقيدته على قوة الكافرين وجبروتهم حتى في وقت الهزيمة، ولحظة الفشل، كما قال اللَّه تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

ومع هذا فإن هذه العقيدة على مستوى شعوب الأمة كانت متوهجة في النفوس، مستقرة في العقول؛ فقد كان المسلم في الشمال الأفريقي يحب أخاه المسلم في الشام ويبغض جاره النصراني، وهكذا في كل الأقطار والبلدان. وكان المسلم يحس بإخوانه في كل مكان وبما يقع لإخوانه في الدين من اعتداءات ونكبات، ويشارك بعضهم مع إخوانهم لجهاد المعتدين، والنفير في سبيل اللَّه. فكانوا إلى حد كبير كما وصفهم الرسول ﷺ «**كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**»(١).

وقد بينا مناصرة مسلمي الحجاز وليبيا لإخوانهم في مصر عندما احتلها الفرنسيون في عام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، وكيف تفاعل المسلمون مع دعوة السلطان عبد الحميد الثاني إلى فكرة الجامعة الإسلامية، ودعوته لاتحاد المسلمين في العالم في مقابل التسلط الأوروبي والروسي وغيرهما، وقد أثمرت هذه الدعوة إلى حد كبير، وتجاوب معها المسلمون في كل مكان على اختلاف لغاتهم وألوانهم وبلادهم، وليس أدل على ذلك من تبرع المسلمين في أقطار العالم لإنشاء خط سكة حديد بين بغداد والحجاز بثلث نفقات الخط. إن الشعور بالترابط الديني بين المسلمين كان قوياً على الرغم من كثرة الانحرافات التي توحي بالفرقة والاختلاف كالمذاهب الكلامية والفقهية، والطرق الصوفية، وكانت عقيدة الولاء والبراء سليمة إلى حد كبير في نفوس العامة، لذلك كبر على أعداء الإسلام من اليهود والنصارى أن يروا في تلك العقيدة جداراً وحاجزاً قوياً يقف أمام مخططاتهم ومحاولاتهم في القضاء على المسلمين ودينهم، ولذا أخذوا يعملون على تحطيم ذلك الجدار وتذويب ذلك الحاجز عن طريق صنائعهم وعملائهم في البلاد الإسلامية، وفي الدولة العثمانية، ممن بأيديهم مقاليد الأمور من السلاطين والباشوات، كما حدث

(١) البخاري، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (١٠/ ٤٣٨) رقم ٦٠١١.

مع السلطان العثماني محمود الثاني المتوفى ١٨٣٩م الذي تزعم حركة الإصلاح المقلدة للمنهج الأوروبي، حيث عمل على مسخ عقيدة الولاء والبراء وحاول طمسها في النفوس، ويتجلى هذا الاتجاه الخطير في قول السلطان نفسه: (. . .إنني لا أريد ـ ابتداء من الآن ـ أن يميز المسلمون إلا في المسجد، والمسيحيون إلا في الكنيسة، واليهود إلا في المعبد، إني أريد ما دام الجميع يتوجه نحوي بالتحية أن يتمتع الجميع بالمساواة في الحقوق وبحماية الأبوية، ومن هنا نعمت المسيحية وغيرها في الدولة في ذلك العصر بحرية واسعة النطاق)(١).

وفي هذا العصر انتشرت المدارس اليونانية والأرمنية والكاثوليكية انتشاراً واسعاً بفضل رعاية السلطان وتشجيعه(٢).

وقد ثار رجال إحدى الحاميات العثمانية ضد احتمال إلزامهم أن يضعوا على صدورهم الحزامين المتقاطعين على شكل صليب على النسق النمساوي، وطرد الثوار الباشا المرسل من قبل السلطان(٣).

وقد سمح السلطان لرعاياه المسيحيين بارتداء الطربوش بدلاً من القلنسوة القديمة، وبذلك خلصهم من الرمز المميز لهم، وكان لذلك رنة فرح شديدة عندهم، وقد حاول فرض الطربوش الأحمر على العلماء بدلاً من العمامة، فلما أبوا عليه ذلك تراجع مغطياً موقفه بإعلان الجهاد ضد الروس(٤).

والأدهى من ذلك ما (حدث من استعانة الدولة العثمانية بضباط دانوا بالولاء لروسيا من قبل، وظلت الدولة غافلة عن هذه الحقيقة، وبالتالي كان لروسيا عيون في جيش السلطان الجديد، تزودها بأدق المعلومات والخطط)(٥)، وكم من هزيمة ساحقة تلقتها الدولة العثمانية من روسيا، وكان من أسبابها تسرب المعلومات الهامة عن طريق هؤلاء.

هذا مثال بارز على ضعف عقيدة الولاء والبراء لدى بعض السلاطين العثمانيين وعدم الاهتمام بها.

أما الباشا محمد علي والي مصر، فقد فتن بالغرب، وتابع سياستهم، وسار على خطاهم، وما فتئ خلال حكمه الطويل الذي بلغ خمسة وأربعين عاماً تقريباً يتولى الكفار ويصانعهم، ويعلي من شأنهم، ويقوم باتباعهم والاقتباس من نظمهم

---

(١) و (٢) انظر: حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني، د. البحراوي، ص ٢١٤.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥٨.
(٤) المصدر السابق نفسه، ص ٢٦١.
(٥) المصدر السابق نفسه، ص ٢٤٧.

وقوانينهم، والسير في ركابهم، مع شدة بطشه وتنكيله بالمسلمين، واستهانته بهم، فقد تخطى عقيدة الولاء والبراء وضربها في الصميم، ليرضى أسياده الصليبيين وليخضع أمته وشعبه المسلم للمخططات اليهودية، فقد اعتاد محمد علي باشا أن يكون أغلب المحيطين به من النصارى واليهود، الذين تغلغلوا في حكومته وبلاطه، خصوصاً نصارى الأرمن من أعداء الملة الذين هم خاصته وجلساؤه وأهل مشورته، وشركاؤه في اختلاس أموال الدولة ونهب خيراتها[١].

وفتح البلاد على مصراعيها لأفواج النصارى الصليبيين للبحث والتنقيب، واكتشاف الآثار، ودراسة الأماكن دراسة دقيقة بل ومساعدته لهم وتذليله الصعاب في طريقهم[٢].

لقد قام النصارى بدراسة مراكز الثروة، ودراسة المواقع دراسة تخطيطية، مما أفادهم ولا شك في احتلال مصر فيما بعد عام **١٨٨٢م** خصوصاً إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المنقبين كانوا من الإنكليز، وكانت هناك أهداف أخرى لم يفطن لها كثير من الباحثين، ونترك الحديث لأحد المستشرقين في كتابه (الشرق الأدنى، مجتمعه وثقافته: (إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا نطمع بطبيعة الحال أن يرتد مسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات. . .)[٣].

وعلى ضوء ما سبق من أهداف نستطيع أن نفسر اهتمامات هؤلاء النصارى بشق البلاد طولاً وعرضاً، وإنفاقهم الأموال الطائلة في كشف الآثار وتعريتها، بدءاً بالفرنسيين ثم الإنكليز الذين ساروا على خط واحد في تنفيذ هذه الأهداف الخبيثة[٤].

يقول الأستاذ محمد قطب:

(ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج الحضارات، تمهيداً لاقتلاعهم نهائياً من الولاء للإسلام)[٥].

وقدم محمد علي خدمة لمخططات الأعداء بضرب الاتجاه الإسلامي السلفي

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٦٥).
(٢) المصدر السابق نفسه (١/ ١٧٠).
(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٢٠٢.
(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٧١).
(٥) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٢٠٢.

في الجزيرة العربية تظاهراً بطاعة السلطان العثماني الذي فقد السيطرة على بلاد الحرمين الشريفين، واتخذ من ذلك ستاراً لتنفيذ مخططات بريطانيا وفرنسا اللتين رأتا الوجود السعودي يشكل خطراً على مصالحهما، خصوصاً في الخليج العربي والبحر الأحمر[١].

وقد كان على رأس تلك الجيوش التي وجهها محمد علي ضباط فرنسيون وبعض النصارى[٢].

وقد سُرّت فرنسا بذلك العمل الحربي المدمر، وكذلك بريطانيا، وأبلغت فرنسا محمد علي عن طريق قنصلها في القاهرة أنها ممنونة مما رأته من اقتداره على نشر أعلام التمدن في البلاد الشرقية[٣].

وضايق محمد علي باشا العلماء والفقهاء والأزهريين في لقمة العيش وسيطر على الأوقاف التابعة للأزهر وضمها للدولة وبالتالي أحكم السيطرة على المشايخ القائمين على التعليم من رجال الأزهر[٤]، وحتى الكتاتيب التي تعلم القرآن الكريم والعلوم الأولية للناشئة من أبناء المسلمين، لم تنج من غائلة محمد علي؛ فقد ذكر الجبرتي ـ رحمه اللّه ـ أن كثيراً من المكاتب أغلقت بسبب تعطل أوقافها واستيلاء محمد علي عليها[٥].

وذكر الشيخ محمد عبده أن ما أبقاه محمد علي من أوقاف الأزهر والأوقاف الأخرى لا يساوي جزءاً من الألف من إيرادها، وأنه أخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي إلى اليوم (في عهد الشيخ محمد عبده) لكانت غلته لا تقل عن نصف ميلون جنيه في السنة، وقرر له بذلك ما يساوي أربعة آلاف جنيه في السنة، بينما نجده قد اندفع نحو التغريب وإرسال البعثات كما ذكرنا في البحث.

إن هذه السياسية التدميرية التي نهجها محمد علي والتي فُرضت قهراً على المسلمين، كانت تنفيذاً للمخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها للرحيل، وهو أمر أكده المؤرخ الإنكليزي أرنولد توينبي في

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٨٩.
(٢) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين ص ١٨٧.
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٧٤).
(٤) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص ١٧٩.
(٥) انظر: عجائب الآثار (٣/ ٤٧٨).

قوله: (كان محمد علي ديكتاتوراً أمكنه تحويل الآراء النابليونية إلى حقائق فعالة في مصر)[١].

لا شك أن محمد علي باشا كان صنيعة من صنائع الغرب وعميلاً من عملائهم، سواء كان وصوله إلى سدة الحكم نتيجة تخطيط صليبي، وعلى الأخص تخطيط فرنسي، أو كان نتيجة لدهاء محمد علي ومكره وثقافته، أو كان للأمرين معاً، فإن هذا كله لا يغير من الأمر شيئاً، ولا ينفي أن محمد علي قد احتوته الدول الغربية، وأخذت تقوده في ركابها، وخصوصاً أن فيه من الصفات والخلال، التي ينشدها المستعمرون دائماً؛ كجنون العظمة، وغلظة القلب وفظاظة الطبع، ورقة الديانة أو عدمها[٢].

وقد عمل محمد علي طوال سنوات حكمه على القضاء على عقيدة الولاء والبراء، واستخدم سياسة العسف والإرهاب والتنكيل في أنحاء مملكته لينتزع هذه العقيدة من قلوب المسلمين، ويقضي عليها قضاءً مبرماً[٣].

ومع عظم الهالة التي أحيط بها محمد علي من قبل المستشرقين ومن اقتفى أثرهم من المؤرخين القوميين والعلمانيين، حول ما قام به من إصلاحات في كثير من المجالات العلمية والاقتصادية والعسكرية، إلا إنه من الثابت من سيرة محمد علي أنه كان يكره مسلمي مصر ويحتقرهم ويزدريهم أيما ازدراء، وليس أدل من ذلك إلا قوله: (ثقوا أن قراري لا ينبع من عاطفة دينية فأنتم تعرفونني وتعلمون أنني محرر من هذه الاعتبارات التي يتقيد بها قومي.. وقد تقولون إن مواطني حمير وثيران وهذه حقيقة أعلمها)[٤].

وقد كان محمد علي باشا متواطئاً مع الفرنسيين عند احتلالهم للجزائر، حتى لقد همَّ ـ بعد أن جاءته الأوامر بالطبع ـ أن يقوم بنفسه باحتلال الجزائر خدمة للفرنسيين، وعملاً لحسابهم الخاص، إلا أن أسياده رفضوا تلك الفكرة التي تهيج المسلمين وتثيرهم بعد أن ينكشف أمر عميلهم، لذا بادروا إلى إلغائها، واكتفى محمد علي بتزويد الفرنسيين في الجزائر بالغلال[٥].

ويذهب الدكتور سليمان الغنام إلى أن بريطانيا لما علمت بعزم محمد علي ثارت ثائرتها وهددته بنسف أسطوله إن هو فكّر في ذلك.

---

(١) انظر: قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، ص ١٨٢.
(٢) و (٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٨١).
(٤) المصدر السابق نفسه، (١/ ١٨٨).
(٥) انظر: الشرق الإسلامي، حسين مؤنس، ص ٣١١.

هذه وقفة مع باشا من باشوات الدولة العثمانية، عمل على إضعاف عقيدة الولاء والبراء لدى الأمة المسلمة بشكل مباشر، تمثل في سياسة العسف والإرهاب، وبشكل غير مباشر اتخذ التغريب له مساراً، لقد استحق محمد علي أن يكون رائد التغريب في العالم الإسلامي العربي التابع للدولة العثمانية، وسار أولاده وأحفاده من بعده على نفس السياسة، فقد ظلوا يتعهدون غراس التغريب والعلمنة، ويسيرون في نفس الطريق ويتسابقون إلى كسب ولاء الغرب، وخطب وده[1].

إن فئة سلاطين الدولة العثمانية وباشواتها أمعنوا في موالاة الكافرين وألقوا إليهم بالمودة، وركنوا إليهم واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وعملوا على إضعاف عقيدة الولاء والبراء في الأمة، وأصابوها في الصميم، وبذلك تميعت شخصية الدولة العثمانية وهويتها وفقدت أبرز مقوماتها، وسهل بعد ذلك على أعدائها أن يحتووها ثم مزقوها شر ممزق.

ثانياً

انحصار مفهوم العبادة

إن من شروط التمكين التي قام بها العثمانيون الأوائل تحقيق مفهوم العبودية الشامل كما فهموه من القرآن الكريم والسنة النبوية، وكما أخذوه عن السلف الصالح رضوان اللّه عليهم.

ففهموا أن الدين كله عبادة، لذا كانت العبادة بمفهومها الواسع هي الغاية الحقيقية التي خلق اللّه الخلق لأجلها، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وكانت هي دعوة الرسل جميعاً من لدن نوح عليه السلام إلى نبينا محمد ﷺ لأقوامهم: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

لقد فهم العثمانيون الأوائل العبادة بمفهومها الشامل الذي أراده اللّه عز وجل، وهي أن تشمل كل نشاط في حياة الإنسان: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٨٩).

وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فأصبحت حياتهم حافلة بالأعمال العظيمة من تقوية الدولة المسلمة، وتربية دائمة لرعاياها، وتعليم القرآن، والعلم، وجهاد الكافرين والمنافقين، وقيام على أمور المسلمين، وتنفيذ لأهداف التمكين، ولذلك نجد العلامة الشيخ آق شمس الدين يجمع بين دوره في توجيه الأمة وتعليمها وتوظيف علم النبات والطب والصيدلة لمصلحة المسلمين، لقد كان هذا الشيخ يعبد المولى عز وجل بالعلم الديني والدنيوي، وكانت له بحوثه في علم النبات ومعالجة الأمراض المعدية وألف في ذلك كتاباً، واهتم أيضاً بمعالجة مرض السرطان، وكان مجاهداً في صفوف جيش محمد الفاتح، مربياً لعوام العثمانيين على طاعة اللّه تعالى، ومهتماً بتزكيتهم وآمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، وكان نعم المربي والناصح لمحمد الفاتح، فبعد أن فتحت القسطنطينية جاء محمد الفاتح يدخل في الخلوة مع الشيخ فمنعه الشيخ شمس الدين وقال لمحمد الفاتح: إنك إذا دخلت الخلوة تجد لذة تسقط عندها السلطنة من عينيك، فتختل أمورها، فيمقت اللّه علينا ذلك، والغرض من الخلوة تحصيل العدالة، فعليك أن تفعل كذا وكذا وذكر له شيئاً من النصائح. إن هذا الفهم الجميل هو الذي سارت به الدولة العثمانية عندما كان للعلماء الربانيين صدارة التوجيه والإرشاد والتعليم، ولذلك نجد نهوضاً شاملاً في عصر السلطان محمد الفاتح في جميع شؤون الحياة التربوية والسياسية، والاقتصادية والعسكرية، والاجتماعية والعلمية. كل ذلك النهوض مستمد من مفهوم العبودية الشامل الذي فهموه من الشريعة الغراء، ولذلك نجد في الدولة العثمانية في عصر مجدها وقوتها تفوقاً في كل المجالات فمثلاً في الجغرافيا يظهر اسم الريس بيري في زمن السلطانين سليم الأول، وسليمان القانوني، وكان الريس بيري قائداً للبحرية العثمانية، وعالماً جغرافياً فذاً (ولد عام ١٤٦٥م وتوفي عام ١٥٥٤م)، كان هذا العالم الجغرافي رائداً من رواد رسم الخرائط في الأدب الجغرافي العثماني وله في هذا المضمار خريطتان مهمتان، الأولى لأسبانيا وغرب أفريقيا والمحيط الأطلسي والسواحل الشرقية من الأمريكتين.. وهذه قدّمها إلى السلطان سليم الأول في مصر عام ١٥١٧م، وموجودة الآن في متحف طوبقبو في استانبول (٦٠ƒ٨٥سم) وعليها توقيع الريس.

والأخرى لسواحل الأطلسي من جرونلاند إلى فلوريدا (٦٨ƒ ٩٦سم) وموجودة الآن في متحف طوبقبو باستانبول أيضاً.

والجدير بالذكر أن الخريطة التي رسمها الريس بيري لأمريكا هي أقدم خريطة لها.

في **٢٦ أغسطس عام ١٩٥٦م** عقدت في جامعة جورج تاون بالولايات المتحدة الأمريكية ندوة إذاعية عن خرائط الريس بيري، اتفق كل الجغرافيين المشتركين فيها بأن خرائط الريس بيري لأمريكا: (اكتشاف خارق للعادة).

وقد كان الريس بيري على معرفة بوجود أمريكا قبل اكتشافها، ويقول في كتاب البحرية: (إن بحر المغرب ـ يقصد المحيط الأطلسي ـ بحر عظيم، يمتد بعرض ٢٠٠٠ ميل تجاه الغرب من بوغاز سبته، وفي طرق هذا البحر العظيم توجد قارة هي قارة أنتيليا)، وتعبير قارة أنتيليا هي الدنيا أو أميركا، وقد كتب الريس أن هذه القارة اكتشفت عام (٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م) أي قبل اكتشاف كولومبس لأمريكا بحوالي ٢٧ سنة[١].

لقد ترك الريس بيري كتاباً في البحرية أثار بما فيه من معلومات وخرائط دقيقة، دهشة المعاصرين من علماء الجغرافيا في أمريكا وأوروبا، معلومات وخرائط أثبت العالم المعاصر صحتها.

وقد ذكر الراهب الجزويتي لاين هام مدير مركز الأرصاد في ويستون ما يدل على عبقرية القائد العثماني الريس بيري في علم الجغرافيا حيث يقول: (خرائط الريس بيري صحيحة بدرجة مذهلة للعقل، خاصة أنها تظهر بوضوح أماكن لم تكن قد اكتشفت حتى أيامه في القرن السادس عشر الميلادي.. إن الجانب المذهب في مكانة بيري، هو رسمه لجبال أنتاركتيكا بتفاصيلها فيما رسمه من خرائط، مع أن هذه الجبال، لم يكن أحد قد تمكن من اكتشافها إلا في عام **١٩٥٢م** أي في النصف الثاني من القرن العشرين، وكيف؟ بعد استخدام الأجهزة المتقدمة العاكسة للصوت، أمّا قبل القائد العثماني الريس بيري، يعني حتى القرن السادس عشر الميلادي، لم يكن أحد يعرف أن أنتاركتيكا موجودة، إذ كانت مغطاة بالجليد طوال عصور التاريخ)[٢].

والمعروف أن أنتاركتيكا هي القارة السادسة والواقعة في نصف الكرة الأرضية الجنوبي.

لم يقتصر الذهول على الراهب لاين **هام فقط، بل تعدّاه إلى كثير من العلماء**

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٨٢.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨٣.

والكتاب، لقد قارن بعض العلماء صور الأرض التي تم التقاطها من مركبات الفضاء (في القرن العشرين) بالخرائط التي رسمها القائد البحري العثماني الريس بيري في البدايات المبكرة للقرن السادس عشر فاتضح التشابه المذهل بين صور مركبات الفضاء وبين خرائط بيري[١].

إن النهضة في الدولة العثمانية في عصورها الزاهية كانت في كل المستويات العلمية، والشعبية، والحكومية والعسكرية، وكانت حركة الدولة والأمة تعبيراً صادقاً لمفهوم العبودية الشامل، أما في العصور المتأخرة للدولة العثمانية فقد انحصر مفهوم العبادة في صور الشعائر التعبدية التي أصبحت تؤدى كعادة موروثة ليس لها من أثر في حياة ممارسيها، اللّهم إلا ما تستغرق من زمن لأدائها، (وتم عزل العبادة عن بقية الإسلام حتى كأن الإسلام منحصر فيها دون بقية الأجزاء كالجهاد مثلاً، وأحكام المعاملات أو العلاقات المالية. ومع أن أكثر الناس إن لم نقل كلهم يعلمون أن الإسلام ليس هو العبادات المفروضة فحسب، فإنهم أهملوا الجوانب الأخرى، وغضوا النظر عنها وأنزلوا مرتبتها، ودعا فريق من المرشدين إلى الإعراض عما سوى هذه العبادات، فالجهاد، وإنكار المنكر، ورد الطغيان والاستعمار، ومقاومة الظلم، والعمل في جميع ما ينفع المسلمين من الأمور العامة، كل ذلك في نظر هذا الفريق من الناس ـ وما أكثرهم في عصور الانحطاط ـ فضول يشغل عن اللّه وعبادته.. وبينما كانت مقاييس الصلاح والتقوى في الإسلام شاملة لجميع الواجبات التي أوجبها الإسلام من عبادات خاصة، وجهاد وعلم وعدل، وعمل نافع للناس واستقامة في المعاملة وإحسان، كل ذلك مقرون بتوحيد اللّه والإخلاص له، أصبحت مقاييس التقوى محصورة في العبادات)[٢].

وهكذا أعانت هذه الفكرة التي عزلت العبادة عن بقية أجزاء النظام الإسلامي الشامل على ضعف الوعي السياسي، والاجتماعي والأخلاقي.

ولقد تسبب هذا الانحصار في مفهوم العبادة في سلبيات من أهمها:

- صارت الشعائر التعبدية تؤدى بصورة تقليدية، عديمة الأثر والفائدة حين عزلت عن بقية أمور الإسلام، فلا تؤدي هذه الشعائر دورها في حياة الإنسان وقد عزلت عن بقية جوانب العبادات الأخرى، فالصلاة التي يخبر اللّه عز وجل عنها بقوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥]، لم تعد ذات أثر

(١) المصدر السابق نفسه، ص ٣٨٤.
(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ١٠٠).

واقعي في حياة مؤديها من الناس حيث لم تعد تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وما كان لها أن تحدث ذلك الأثر وقد حصرت العبادة في أداء الشعائر التعبدية فحسب.

- تهاون الناس في بقية جوانب العبادات الأخرى، إذ هي عندهم ليست من العبادة في شيء حين نرى من المسلمين من يصلي الفروض جماعة في المسجد، ثم يخرج ويحلف على عتبة المسجد كاذباً، ويغش في بيعه وشرائه، ويحتال في معاملاته، ويأكل الربا أضعافاً مضاعفة، ويقع في أعراض الناس، ثم تراه سادراً في ذلك مرتاح الضمير، هادئ الخاطر، قد أسكت وخزات ضميره وتأنيب نفسه بما نقره من ركعات.

- العناية بالجانب الفردي الشخصي، وإهمال الجوانب الاجتماعية، فنجد أن المسلمين قد «عنوا بالآداب الفردية والمتعلقة بذات الإنسان أكثر من عنايتهم بالآداب الاجتماعية المتعلقة بالآخرين، فقد يكون المسلم في ذاته نظيفاً ولكنه لا يبالي أن يلقي القمامة في طريق المسلمين، ناسياً أن «**إماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان**» كما ورد في الحديث[(١)]، وقد يكون المسلم مراعياً لأحكام الطهارة وشروط النظافة في نفسه، ولكنه لا يبالي أن يلوث للناس طرقهم وأماكن جلوسهم وأن يخل بالآداب الاجتماعية التي أمر الإسلام بها»[(٢)].

ونتيجة لكون مفهوم العبادة انحصر في الشعائر وحدها وخرجت منها بقية الأعمال، فاهتم الناس بشؤونهم الخاصة وأهملوا شؤونهم العامة، ونمت روح الفردية على حساب الروح الجماعية.

- إقامة العبادة مقام العمل، والاكتفاء برسومها وشعائرها وبما أحدث فيها من بدع عن اتخاذ الأسباب.

«قراءة القرآن وتلاوته لفظاً أصبح بديلاً عن العمل بما فيه، من آيات الجهاد والنظر إلى الكون والتفكير فيما خلق اللّه وإقامة العدل والميزان بالقسط، والحكم بما أنزل اللّه واستثمار ما في الكون من نعم اللّه مع أن ذلك كله عبادة.. وبينما كان الرسول ﷺ يستعد لقتال المشركين كل الاستعداد كما أمره اللّه، ويدعو اللّه ويبتهل إليه لينصره، إذا بالمسلمين في هذه العصور الأخيرة يجعلون الصلاة والدعاء ـ المأثور منه والمبتدع المخترع ـ بديلاً عن الأسباب فيلتمسون الرزق والشفاء والنصر، لا بأسبابها المشروعة التي جعلها اللّه سبباً وطريقاً إليها، بل

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (١/ ٦٣).
(٢) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر لمحمد المبارك، ص ٦٦.

بأدعية خاصة يقتصرون على تلاوتها، وربما اخترعوا لذلك رقي وتمائم وحجباً، وزيارات لأمكنة خاصة وأوراداً ابتدعوها..»[١].

ولقد نتج عن هذا الانحصار الخطير في مفهوم العبادة أن خرجت جميع الأعمال الأخرى عن دائرة العبادة، فخرج العمل السياسي بما يشتمل عليه من رقابة الأمة على أعمال الحاكم، وتقديم النصيحة إليه، والسهر على تطبيق الشريعة وإجراء العدل في حياة الناس.

وما أجمل ما قاله سيد قطب في توضيحه لحقيقة العبادة واستنكاره لمن يحصرها في الشعائر التعبدية: (الواقع أنه لو كان حقيقة العبادة هي مجرد الشعائر التعبدية ما استحقت كل هذا الموكب الكريم من الرسل والرسالات، وما استحقت كل هذه الجهود المضنية التي بذلتها الرسل ـ صلوات اللّه وسلامه عليهم ـ وما استحقت كل هذه العذابات والآلام التي تعرض لها الدعاة والمؤمنون على مدار الزمان! إنما استحق كل هذا الثمن الباهظ هو إخراج البشر جملة من الدينونة للعباد، وردهم إلى الدينونة للّه وحده في كل أمر، وفي كل شأن، وفي منهج حياتهم كله للدنيا وللآخرة سواء)[٢]، وهذا معنى العبادة الشامل الذي وعاه العثمانيون الأوائل، فطبقوه في حياتهم، وعملوا به في واقع الأرض، فدانت لهم الممالك، وخضعت أمامهم الطواغيت، ومكن اللّه لهم في الأرض، ورفعوا راية الإسلام خفاقة فوق بقاع شاسعة من المعمورة، ويوم تبدل ذلك المفهوم وانحصر في دائرة الشعائر، فترت الهمم وضعفت العزائم عن القيام بأمور الإسلام كاملة فوقع الضعف ثم السقوط.

إن ما حل بالدولة العثمانية من هزائم عسكرية، وأزمات اقتصادية وانحرافات خلقية، ومصائب اجتماعية وتلوثات فكرية، وجفاف روحي، وتأخر حضاري، كان من أسبابه إفراغ الإسلام من محتواه الأصيل، وضياع مفهوم العبادة الشامل.

«فيوم كانت ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ [الأنفال: ٦٠] عبادة لم يجرؤ أحد على احتلال أراضي المسلمين واستلاب خيراتهم، ويوم كان «**طلب العلم فريضة**» لم يكن هناك تخلف علمي، بل كانت الأمة المسلمة هي أمة العلم، التي علمت أوروبا في مدارسها وجامعاتها!

ويوم كانت ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ [الملك: ١٥] عبادة، كانت المجتمعات الإسلامية أغنى مجتمعات الأرض!

---

(١) انظر: المصدر السابق نفسه، ص ٦٩.

(٢) انظر: في ظلال القرآن (١٩٣٨/٤).

ويوم كانت «**كلكم مسؤول عن رعيته**» عبادة، وكان ولي الأمر يستشعر أنه راع ومسؤول عن رعيته، لم يكن للفقراء في المجتمع الإسلامي قضية، لأن العلاج الرباني لمشكلة الفقر كان يطبق في المجتمع الإسلامي عبادة للّه!

ويوم كانت ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩]، عبادة لم تكن للمرأة المسلمة قضية، لأن كل الحقوق والضمانات التي أمر اللّه بها كانت تؤدي إليها طاعة للّه، وعبادة للّه..)[١].

لقد كان الانحراف عن مفهوم العبادة الشامل من أسباب إفساح المجال في العصور المتأخرة للدولة العثمانية لشيوع المذهب العلماني، وهيمنة الشعارات العلمانية على كثير من الأقاليم التابعة للدولة العثمانية.

ثالثاً

انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات

إن الدولة العثمانية في القرنين الأخيرين كانت غارقة في كثير من مظاهر الشرك والبدع والخرافات، وحدث انحراف في توحيد الألوهية انحرافاً رهيباً، وغشيها موج من الظلام والجهل حجب عنها حقيقة الدين وطمس فيها نور التوحيد وعدل بها عن صراطه المستقيم[٢].

يوم كانت الدولة العثمانية محققة للتوحيد، وتمارس مفهوم العبادة الشامل، وتحارب الشرك كانت في ذروة التمكين والعز والنصر من اللّه تعالى، فهذا السلطان مراد الأول وهو في سكرات الموت بعدما طعنه جندي صربي يودع الدنيا بمعان عميقة في التوحيد، وكلمات جامعة على التوحيد المنافي للشرك فيقول: «لا يسعني حين رحيلي إلا أن أشكر اللّه، إنه علام الغيوب المتقبل دعاء الفقير، أشهد أن لا إله إلا اللّه، وليس يستحق الشكر والثناء إلا هو، لقد أوشكت حياتي على النهاية ورأيت نصر جند الإسلام، أطيعوا ابني يزيد، ولا تعذبوا الأسرى ولا تؤذوهم ولا تسلبوهم، وأودعكم منذ هذه اللحظة وأودع جيشنا الظافر العظيم إلى رحمة اللّه فهو الذي يحفظ دولتنا من كل سوء[٣].

أما السلطان مراد الثاني فقد ترك وصيته: (فليأت يوم يرى الناس فيه

(١) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح لمحمد قطب، ص ٢٤٩.
(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٢٧١).
(٣) انظر: الفتوح الإسلامية عبر الصعور، ص ٣٩١.

ترابي)[١] لقد كان قلقاً يخشى أن يدفن في قبر ضخم، وكان يريد ألا يبني شيء على مكان دفنه.

لقد كان السلاطين الأوائل تتفجر معاني التوحيد في كلماتهم وتنعكس على أعمالهم، وانتشرت تلك المفاهيم في الشعب العثماني قاطبة، أما في العصور المتأخرة فقد تغير الحال، ومع تضافر الأدلة وتواترها ووضوحها في النهي عن كل السبل المفضية إلى الشرك وتحذير النبي ﷺ وتشديده في ذلك قبل وفاته، كقوله ﷺ في الصحيحين: «**لعن اللّه اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما فعلوا.

قالت عائشة رضي اللّه عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً[٢]، وقوله ﷺ: «**لعن اللّه زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج**»[٣].

وقال ﷺ قبل أن يموت بخمس: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**»[٤].

وقوله ﷺ: «**اللّهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، اشتد غضب اللّه على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»[٥]، وقوله ﷺ: «**لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها**»[٦].

وحين ذكر له بعض نسائه كنيسة رأينها في أرض الحبشة فيها تصاوير، قال ﷺ: «**إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً، ثم صوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند اللّه**»[٧].

ونهيه ﷺ أن يجصص القبر، وأن يقعد عليه وأن يبني عليه، وجاء في رواية أخرى النهي عن الكتابة على القبور[٨]. وفي أواخر الدولة العثمانية كثر على غير العادة تشييد القباب وبناء الأضرحة وإقامة المشاهد، وتحديث المزارات حتى لكأن هذه النصوص جاءت تأمر بالبناء على القبور، وتذكر فضله وتحث عليه.

---

(١) انظر: العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ٣٤٦.
(٢) البخاري، كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور رقم ١٣٣٠.
(٣) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء أن يتخذ على القبر مسجد، رقم ٣٢٠.
(٤) مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، رقم ٥٣٢.
(٥) رواه مالك في الموطأ (١/ ١٧٢).
(٦) مسلم، كتاب الجنائز، باب النهي عن الجلوس على القبور، رقم ٩٧٢.
(٧) البخاري: كتاب الصلاة، باب هل تنبش قبور مشركي الجاهلية رقم ٤٢٧.
(٨) الترمذي، كتاب الجنائز، باب ما جاء في كراهية تجصيص القبور، صححه الألباني رقم ٧٥٧.

وزاد الأمر سوءاً أن بعض الفقهاء أفتوا بجواز بناء القباب على القبور إذا كان الميت فاضلاً، واحتجوا بقولهم: إن بعض السلف استحسن ذلك، وزاد الطين بلة أنهم أودعوا تلك الآراء الفاسدة في مصنفاتهم التي يعكف على دراستها الطلاب[١].

وأول من أحدث هذه المشاهد الشركية، والمزارات الوثنية في الأمم هم الشيعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية بعد أن تحدث عن دور اليهود في نشأة التشيع: «فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد، محتجين بأنه لا تصلى الجمعة والجماعة إلا خلف إمام معصوم، ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب من أهل الكتاب حتى صنف كبيرهم ابن النعمان[٢] كتاباً في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه على النبي ﷺ وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد»[٣].

وانتقل هذا الوباء العظيم وبدأ في نخر الدولة العثمانية، وتعاظم شره ووقع ما حذر منه النبي ﷺ من الشرك العظيم.

وقد تجلت مظاهر الشرك ووسائله في تلك الفترة في الصور التالية:

- بناء المساجد والقباب والمشاهد على الأضرحة والقبور في أقاليم الدولة بل انتشر ذلك في العالم الإسلامي كله، وللأسف الشديد نجد الدولة العثمانية في العصور المتأخرة تشجع على تلك المشاهد والأضرحة المنتشرة في العالم الإسلامي، فمثلاً أعفت الدولة أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف، احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة، يعني الزبير بن العوام رضي اللّه عنه، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً، وقامت والدة السلطان عبد العزيز بترميم القباب، وتكبير المسجد، وفي سنة **١٢٩٣هـ** ورد أمر من السلطان عبد الحميد الثاني بتعمير هذه المراقد الشريفة على نظارة والي البصرة (ناصر باشا السعدون).

ثم في سنة **١٣٠٥هـ** أمر السلطان عبد الحميد أيضاً بتبييض القباب وتعمير المسجد، وأمر أيضاً بكسوتين للضريحين (الزبير وعتبة بن غزوان) من الحرير

---

(١) الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٢٧٢، ٢٧٣).

(٢) من كبار الشيعة الإسماعيلية في مصر.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى (٢٧/ ١٦٢).

الأحمر المفتخر المطرز بالفضة، وأمر أيضاً بوضع مباخر وقماقم من الفضة عند الضريحين الكريمين[١]. وكانت جميع الأقاليم الإسلامية، في الحجاز واليمن وأفريقيا ومصر والمغرب العربي والعراق والشام وتركيا وإيران، وبلاد ما وراء النهر والهند وغيرها تتسابق في بناء الأضرحة والقباب وتتنافس في تعظيمها والاحتفاء بها، إذ البناء على القبور هو ما درج عليه أهل ذلك العصر، وهو الشرف الذي يتوق إليه الكثيرون.

لقد أولع العثمانيون في عصورهم المتأخرة بالبناء على كل ما يعظمه الناس في ذلك العصر، سواء أكان ما يعظمونه قبوراً أو آثاراً لأنبياء أو غير ذلك.

وأصبحت تلك المشاهد والأضرحة محلاً للاستغاثة بأصحابها، وانتشرت عقائد شركية كالذبح لغير وجه اللَّه، والنذر للأضرحة، والاستشفاء وطلب البراء من الأضرحة والاعتصام بها، وأصبحت الأضرحة والقبور تهيمن على حياة الناس، وأصبحت مهيمنة على شؤونهم، وشغلت تفكيرهم، وتبوأت في نفوسهم وقلوبهم أعلى مكانة، وكانت رحى تلك الهيمنة تدور على الغلو والشرك بالأموات، والتعلق بهم من دون اللَّه عز وجل، فلا يبرمون من أمورهم صغيرة ولا كبيرة إلا بعد الرجوع إلى تلك الأضرحة، ودعاء أصحابها واستشارتهم، وهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فكيف لغيرهم، وقد كان العلماء وللأسف الشديد يتقدمون العامة ويسنون لهم السنن السيئة في تعظيم الأضرحة والمقامات والولوع بها، ويزرعون الهيبة في نفوسهم بما كانوا يقومون به.

وقد تمادى الناس في الشرك والضلال وأمعنوا في الوثنية ومحاربة التوحيد، فلم يكتفوا بالمقبورين والأحياء، بل أشركوا بالأشجار والأحجار، ووصل الأمر إلى اعتقاد العامة في بغداد في مدفع قديم في ساحة الميدان من بقايا أسلحة السلطان مراد العثماني التي استخدمها في حربه مع الفرس، لإخراجهم من بغداد حيث كانوا يقدمون إليه النذور، ويطلبون منه إطلاق ألسنة أطفالهم، وهو يعرف عندهم بـ «طوب أبي خزامة» مما حدا بالعلامة محمود شكري الآلوسي إلى التصدي لهذه الخرافة الشنيعة بكتابة رسالة يزجر بها هؤلاء الجاهلين أسماها بـ (القول الأنفع في الردع عن زيارة المدفع)[٢].

واعتاد الناس في أواخر الدولة العثمانية أن يحلفوا بغير اللَّه عز وجل من

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٢٩٤).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٣٦٧).

المخلوقين، وكان يسهل على أحدهم الحلف باللّه كاذباً، عامداً متعمداً، ولكنه لا يجرؤ أبداً أن يحلف بما عظمه من المخلوقين إلا صادقاً.

انتشار البدع:

كان السلاطين الأوائل في الدولة العثمانية ينفرون من البدع وأهلها ويحاربونها، فهذا السلطان محمد الفاتح في وصيته يقول لمن بعده: «جانب البدع وأهلها وباعد الذين يحرضونك عليها» أما في العصور المتأخرة من الدولة العثمانية فإن البدع انتشرت انتشاراً ذريعاً، وأصبحت حياة رعايا الدولة ممزوجة بها، فقلما تخلو منها عبادة، أو عمل أو شأن من شؤون الحياة، سواء في الجنائز والمآتم والأعراس والضيافات والولائم، وبدع الموالد عند المتصوفة المنحرفين، وهكذا أصبحت البدع تُرى في كل مكان، تكاد تحتل منزلة الصدارة من حياة الناس، يعمل بها الجاهلون ويؤيدها العالمون، وأصبحت السنة بدعة والبدعة سنة[١]، وتغير مفهوم الدين والعلم من منهج كامل وشامل لجميع مجالات الحياة، إلى طقوس غريبة ورسوم بالية يتشبثون بها، ويحسبون أنهم مهتدون. وتحول صحيح البخاري بما حواه من منهج للنبي ﷺ إلى تقليد بال رتيب، يتلى في الأزمات ويقرأ في الحروب، طلباً للنصر ودحر الأعداء[٢].

لقد أضحت السنة في تلك الفترة غريبة جداً، بعد أن غمرها طوفان البدع العظيم، وصار الناس متشبثين بالبدع على أنها من صميم الدين، ويأبون التفريط فيها مطلقاً، في الوقت الذي كانوا يفرطون فيه في كثير من أحكام الإسلام، ويكافحون من أجلها، ويتعاهدون عليها، ويرون أنهم خدموا الدين، ونفعوا المسلمين[٣].

انتشار الخرافات:

في أواخر الدولة العثمانية فشت الخرافات والأساطير في جموع المسلمين بشكل منقطع النظير، وأضحت كحقائق مسلمة لا تقبل النقاش مطلقاً، وليس ذلك فحسب، وإنما غدت عند كثير منهم أموراً مقدسة لا يجوز التهاون بها، فضلاً عن التشكيك في صحتها.

ومن الخرافات في الأستانة: أن جامع خوجة مصطفى باشا محاط بزنجير

(١) انظر: مشكلات الجيل في ضوء الإسلام ص ٣٧٣.

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٣٨٠).

(٣) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٢٨).

مربوط طرفه بشجرة سرو قديمة، ولهذا الزنجير خرافة يتناقلها الجهلاء مؤداها أن كل من أنكر شيئاً حقيقياً، وجلس تحت هذا الزنجير، فهو يسقط على رأسه، وإذا كان صادقاً في إنكاره، فالزنجير لا يتحرك[١]، ولقد كانت الأمة في تلك الفترة غارقة في عبادة الأضرحة، والتعلق بها من دون اللّه عز وجل، ووقعت فريسة لكثير من مظاهر الشرك والغلو والبدع والخرافات، التي ملأت حياتها، وشغلت أوقاتها، وقتلت طاقاتها، وصرفت جهودها، عن طريقها الصحيح، فعجزت عن النهوض من كبوتها، ولم تستطع أن تعالج أسباب انحطاطها، وانهزمت أمام جيوش الأعداء، ووهنت عن مقاومة مخططاتهم ومؤامراتهم، وكانت النتيجة ضياع الدولة العثمانية.

رابعاً

الصوفية المنحرفة

إن أعظم انحراف وقع في تاريخ الأمة الإسلامية ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، وقد قوي عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني بسبب عوامل متعددة منها:

١ ـ **الأحوال السيئة التي كانت تعيشها الأمة الإسلامية**: والواقع المرير الذي كان يعيشه المسلمون في تلك الفترة، من انتشار التخلف، والظلم، والطغيان، والفقر، والمرض، والجهل، كل ذلك جعل الناس يرتمون في أحضان الصوفية المنحرفة، التي لا تقوم بأكثر من التربيت عليهم، والتخدير لهم، وجعلهم يعيشون في غير واقعهم الذي فروا منه.

٢ ـ **كان اضطراب الأمن وانعدامه سمة من سمات العصور المتأخرة**: حيث كانت تزهق الأرواح لأسباب تافهة بل دون سبب في بعض الأحيان، وفي هذه الأجواء الحالكة، والظروف العصيبة، كان أرباب التصوف يحيون حياة هادئة يرفرف عليها الأمن والاطمئنان بعيدة عن المصائب والفتن التي فتكت بالناس.

«قد كان الفقراء أروح بالاً وأكثر طمأنينة من الفلاحين في حقولهم، والتجار في متاجرهم، والصناع في مصانعهم، فقد كانوا في أمن من تطبيق القوانين.. وكانوا في أغلب فترات الظلم الفادح في نجاة من هذه الشرور كلها، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم، ويخشون سلطانهم الروحي، يؤمنون باتصالهم باللّه،

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٣٢).

فيتزلفون إليهم ويطلبون الرضا منهم، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من اطمئنان البال واستقرار الحال»[١].

٣ ـ الترف في معيشة أرباب الفرق: «كان الفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه، بل كانوا يعيشون في الزوايا، طاعمين كاسين، على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة اللَّه.. ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهاد الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شؤون العيش، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف[٢]..

٤ ـ حب الأتراك العثمانيين للدروشة والتصوف: «كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهل الإيمان بصدق ولايتهم»[٣].

«لقد كانت الصوفية قد أخذت تنتشر في المجتمع العباسي، ولكنها كانت ركناً منعزلاً عن المجتمع، أما في ظل الدولة العثمانية، وفي تركيا بالذات، فقد صارت هي المجتمع وصارت هي الدين، وانشر ـ في القرنين الأخيرين بصفة خاصة ـ تلك المقولة العجيبة: [من لا شيخ له فشيخه الشيطان!] وأصبحت ـ بالنسبة للعامة بصورة عامة ـ هي مدخلهم إلى الدين وهي مجال ممارستهم للدين»[٤].

وقد كان كثير من سلاطين آل عثمان يقومون برعاية الصوفية، ويفيضون عليها من عطفهم وحدبهم، حتى جاء السلطان عبد الحميد إلى السلطنة في ظروف عصيبة والمؤامرات تحاك للأمة، والكوارث والمحن تحيط بها من كل مكان، ودعاة القومية يبثون دعوتهم في سائر البلاد، فدعا إلى الجامعة الإسلامية والرابطة الدينية، وكانت الصوفية بجميع أصنافها وطرقها تشكل ثقلاً في الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

لقد كان ذلك العصر، عصر الصوفية التي أطبقت على العالم الإسلامي من أدناه إلى أقصاه، ولم تبق مدينة ولا قرية إلا دخلتها إلا استثينا نجد وملحقاتها[٥].

لقد سيطرت الصوفية المنحرفة على العالم الإسلامي في تلك الفترة، ووقع

---

(١) انظر التصوف في مصر إبان العصر العثماني، د. الطويل، ص ١٥٢، ١٥٤.
(٢) و (٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٥٤.
(٤) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٥.
(٥) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٤٤٧).

جمهور من المسلمين في أسرها، وعظم سلطان المتصوفة في ذينك القرنين، وبلغ مبلغاً عظيماً، لو لم يكن من قوته ونفوذه إلا هيمنته على الجماهير الغفيرة في طول البلاد وعرضها لكفى، فكيف إذا تبنته الدولة وناصره الحكام[١].

وكانت نظرة المتصوفة المنحرفة تحترم البطالة وتبيح التسول، وتصطنع الضيق، وتسعى إلى مواطن الذل، وتغتبط بالهوان، وكانت نظرتهم إلى الأخذ بالأسباب منحرفة جداً «فما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته، والزارع الذي ينفق جهده في زراعته، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته، وما أفشل من سافر منهم طلباً لكسب أو رغبة في مال، فإن الرزق في طلب صاحبه دائر، والمرزوق في طلب رزقه حائر، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر..».

وفسدت لدى كثير من المتصوفة عقيدة القضاء والقدر، وأصبحت عندهم عقيدة سلبية مخذلة، لقد كتب أحد المستشرقين الألمان وهو يؤرخ لحال المسلمين في عصورهم الأخيرة يقول: «طبيعة المسلم التسليم لإرادة اللّه، والرضا بقضائه وقدره، والخضوع بكل ما يملك للواحد القهار، وكان لهذه الطاعة أثران مختلفان: ففي العصر الإسلامي الأول لعبت دوراً كبيراً في الحروب، إذ حققت نصراً متواصلاً لأنها دفعت في الجندي روح الفداء، وفي العصور الأخيرة كانت سبباً في الجمود الذي خيم على العالم الإسلامي فقذف به إلى الانحدار وعزله وطواه عن تيارات الأحداث العالمية»[٢].

إن هذا الرجل وهو كافر أدرك هذه الحقيقة: حقيقة الفرق بين الإيمان بالقدر كما فهمه السلف، وبين الإيمان الذي ابتدعه الخلف متأثرين بالمتصوفة، فالذنب ليس ذنب العقيدة بل ذنب المعتقدين بها، وقد صاغ ذلك شاعر الإسلام محمد إقبال شعراً فقال:

من القرآن قد تركوا المساعي ... وبالقرآن قد ملكوا الثريا
إلى التقدير ردوا كل سعي ... وكان زمانهم قدراً خفياً
تبدلت الضمائر في إسار ... فما كرهوه صار لهم رضياً[٣]

وقد استغل نابليون بونابرت تلك الفكرة المنحرفة عن القضاء والقدر لما احتلت جيوشه الصليبية أرض مصر، فكان يصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأن ما

---

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٤٤٨).
(٢) انظر: الإسلام قوة الغد العالمية، باول سمتز، ص ٧٨.
(٣) انظر: العلمانية، سفر الحوالي، ص ٥١٩.

وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدر من اللَّه، فمن حاول الاعتراض على ما وقع فكأنما يعترض على القضاء والقدر(١).

لقد كانت مفاهيم التصوف المنحرف تنخر في كيان الدولة العثمانية، وكان العالم الصليبي ينطلق في مجالات العلم وميادين المعرفة آخذاً بأسباب القوة والتقدم والرقي، ويدير المؤامرات والدسائس لتفتيت الدولة العثمانية، ومن ثم الهيمنة على العالم الإسلامي.

وكان المتصوفة المنحرفون مقبلين على استماع الملاهي والمعارف ويتعلمون الموسيقى، وكانت مجالسهم مليئة بالطبول والنايات والأعلام والرايات، وكانت كثير من الطرق المنحرفة لا تخلو حلقات الذكر من الدف، حتى قال أبو الهدي الصيادي وهو من خواص السلطان عبد الحميد الثاني، ومن أنصار الجامعة الإسلامية:

اضرب الدف وجانب جاهلاً ... حكمة الشرع لمعنى ما درى
كل ما حرك قلباً ساكناً ... ودعا العقل منه معتبراً
وأجال الروح في برزخها ... تذكر اللَّه وتبغي مظهراً
فهو بر والذي يفعله ... فعل البر واللَّه يرى
إن في الدف وفي رنته ... نغمة يعرفا من ذكرا
صوته ذكر وفي بحته ... أنه تذكر أوقات السرى
نضرب الدف ومنه عندنا ... ذاكراً نسمعه لن يفترا(٢)

وقد كان للسماع عند جمهور المتصوفة منزلة عظيمة، يقول أبو الهدي الصيادي: «من لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن لطف الاعتدال، بعيد عن نور الروحانية، زائد في غلظة الطبع وكثافته، بل هو أبلد من الجماد والطيور وسائر البهائم، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة.. وبالجملة فالسماع يثمر حالة في القلب تسمى وجداً، ويثمر الوجد تحريك الأطراف، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب، وإما بحركة موزونة فتسمى التصفيق والرقص»(٣).

ويا ليت أولئك المتصوفة اقتصروا على الولوع بالطرب والسماع والغناء، ولكنهم جعلوه إلى اللَّه قربة، وعدوه طاعة تلين بها القلوب، وتشف بها الأرواح.

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٤٦٧).
(٢) انظر: رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع للصيادي، ص ٤٥.
(٣) المصدر السابق نفسه، ص ٧٨.

وما أحسن ما قاله العلامة الحافظ ابن القيم الجوزية عن هؤلاء المتصوفة حيث يقول: «فلو رأيتهم عند ذياك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات، وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له كتمايل النشوان، وتكسروا في حركاتهم ورقصهم، أرأيت تكسر المخانيث والنسوان؟

ويحق لهم ذلك، وقد خالط خمرة النفوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حمى الكؤوس، فلغير اللّه، بل للشيطان، قلوب هناك تمزق، وأثواب في غير طاعة تنفق، حتى إذا عمل السكر فيها عمله، وبلغ الشيطان منهم أمنيته وأمله، واستفزهم بصوته وحيله، وأجلب عليم برجله وخيله، وخز في صدورهم وخزاً، وأزهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزاً، فطوراً تجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالذباب ترقص وسط الديار، فيا رحمة للسقوف والأرض من دك تلك الأقدام، ويا سوأتا من أشباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام، بالذين يزعمون أنهم خواص الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطرباً، واتخذوا دينهم لهواً ولعباً، مزامير الشيطان أحب إليهم من سماع سور القرآن، لو سمع أحدهم القرآن من أوله إلى آخره لما حرك له ساكناً، ولا أزعج له قاطناً، ولا أثار فيه وجداً، ولا قدح فيه من لواعج الأشواق إلى اللّه زنداً، حتى إذا تلي عليه قرآن الشيطان، وولج مزموره سمعه، فجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرت، وعلى أقدامه فرقصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران أشواقه فاشتعلت.. وقد أحسن القائل:

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي
وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... واللّه ما رقصوا لأجل اللّه
دف ومزمار ونغمة شادن ... فمتى رأيت عبادة بملاهي
ثقل الكتاب عليهم لما رأوا ... تقييده بأوامر ونواهي
سمعوا له رعداً وبرقاً إذ حوى ... زجراً وتخويفاً بفعل مناهي
ورأوه أعظم قاطع للنفس عن ... شهواتها يا ذبحها المتناهي
وأتى السماع موافقاً أغراضها ... فلأجل ذاك غدا عظيم الجاه[1]

وهكذا أصبحت حياة المتصوفة المنحرفين في اللهو والسخافة، وأضاعوا أوقاتهم وأعمارهم في مجالس الذكر والسماع والملاهي، وأصبحت حياتهم من

(١) انظر الانحرافات العقدية والعلمية (١/٥٠٦).

أولها إلى آخرها تدور حول الذكر في صورته المنحرفة، وضاعت عبادة السعي في مناكب الأرض وطلب الرزق، والجهاد، وطلب العلم ونشره، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكلها أمور تشغل عن الذكر وتصد عنه، ومن ثم ينبغي على المسلم أن لا يشتغل بها وأن يعيش حياته على الذكر بالسماع والغناء والرقص.

ودخل في عالم التصوف المنحرف تقديس الأشخاص، الأموات منهم والأحياء، ونسبوا إليهم خوارق العادات والكرامات، وعاشوا في الأوهام، عالم الخيال، وأصيب الناس بالوهن والعجز والانحطاط، واتسعت هوة التخلف والسقوط، وكانت أوروبا الصليبية تواصل صعودها في سلم الحضارة المادية وتعد جيوشها للزحف على العالم الإسلامي الغارق أهله في دنيا الخرافات والأوهام، والاتكال على الخوارق والكرامات.

وفي الوقت الذي كانت فيه الأمة تعاني أشد المعاناة من الضعف والانحطاط، وتدور عليها المؤامرات من الأعداء وتحاك لها الدسائس، كان كثير من علمائها طوع مشيئة شيوخهم من المتصوفة المنحرفين الذين أشاعوا روح الذل والخنوع في الأمة، والذلة والهوان، وغير ذلك من الأمراض المنحرفة، وتركت كثير من الطرق الصوفية المنحرفة الجهاد لمقارعة الأعداء، وأصبح الأولياء في عرف الناس هم المجاذيب والمجانين والمعتوهين، ولا شك أن هناك بينهم نسبة كبيرة من الدجالين والمحترفين، استغلوا ما للمجاذيب من مكانة مقدسة في نفوس الناس، فاندسوا في صفوفهم، ليصبحوا ضمن رابطة الأولياء، من الذين لا لوم عليهم ولا عتاب، مهما ارتكبوا من الموبقات، وجاهروا بالفواحش والآثام، وكان الكثير منهم يتعامل مع الجن، فكان طبيعياً أن تنفذ سهام الأعداء، وتنجح مخططاتهم، وتحتل جيوشهم أرضنا، وتستباح بيضتنا، ولقد حفلت الصوفية ببحر زاخر من العقائد المنحرفة والضالة، ولعل آخر العقائد مما آمن بها كثير من المتصوفة المنحرفين عقيدة وحدة الوجود والحلول، لقد احتضن المتصوفة المنحرفين هذه العقائد، وعملوا على نشرها، وألفوا مؤلفات من أجلها واعتبروها الحقيقة التي كُشفت لهم سرها وسُترت عن الآخرين.

وكان تدريس كتابي (فصوص الحكم) و (الفتوحات المكية) لـ (ابن عربي) وغيرهما من كتب المتصوفة التي تطفح بعقيدتي وحدة الوجود والحلول، هو شعار كبار العلماء من المتصوفة وغيرهم، وهو المنزلة العلمية التي لا يتبوؤها إلا الخاصة منهم، والمستوى العلمي الذي لا يرقى إليه إلا فحول العلماء[1].

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٥٥٦).

لقد لقيت هذه العقائد المنحرفة رواجاً واسعاً بين المتصوفة المنحرفين في تلك الفترة الحرجة التي كانت تمر بها الأمة الإسلامية، فكان كثير منهم يؤمن بعقيدة وحدة الوجود، التي لا يمكن للحياة في ظلها أن تفسد، ويحيق الدمار بالعالم، وتبطل الأديان بالكلية، فلا يبقى معها دين ولا جهاد، ولا عداء بين مسلم وكافر، فالكل واحد، والوجود واحد، وإن تعددت المظاهر، نسأل اللّه السلامة في الدين.

وكان هناك استخفاف من كثير منهم بالشرائع، وإلغاؤهم التكاليف أو إسقاطهم لها، واستهانتهم بأوامر الدين ونواهيه، تحت مسمى الولاية والحزب والجذب والشهود. ولقد كان واقع الصوفية حجة قوية استندت إليها حركات التغريب التي نخرت الدولة العثمانية.

خامساً

نشاط الفرق المنحرفة

كالشيعة الاثني عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

لقد كانت تلك الفرق قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عاداتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين تحت قياداتهم.

ففي الماضي كانوا أكبر عون للتتار والصليبيين ضد المسلمين، وها هم يسيرون على نفس المنهج الممزوج بالخيانة والتآمر لحساب أعداء الأمة، وقد مر بنا في هذا الكتاب دور الصفوية الاثني عشرية الشيعة في محاربة الدولة العثمانية على مر عصورها، وحين احتل الفرنسيون سوريا وانطلقت الحركات الجهادية ضدهم، كان الإسماعيلية في سليمة وغيرها يقاتلون جنباً إلى جنب مع الفرنسيين كما فعلوا مع المجاهد (إبراهيم هنانو) ومن معه من المجاهدين[١].

أما طائفتا النصيرية والدروز: فقد كانتا على مر التاريخ والعصور مصدراً لإثارة القلاقل وزعزعة الأمن والثورات المستمرة ضد الحكم الإسلامي، وعوناً للأعداء من الصليبيين المستعمرين وغيرهم.

وفي القرن الثالث عشر الهجري تفاقم أمر النصيرية وتعاظم خطرهم في بلاد

---

(١) انظر: الأعلام (١/ ٤٢).

الشام مما حدا بـ (يوسف باشا) والي الشام أن يقود جيشاً بنفسه ويقاتلهم حيث (انتصر عليهم وسبى نساءهم وأولادهم، وكان قد خيرهم بين الدخول في الإسلام أو الخروج من بلادهم، فامتنعوا وحاربوا وانخذلوا وبيعت نساؤهم وأولادهم، فلما شاهدوا ذلك أظهروا الإسلام تقية، فعفا عنهم وعمل بظاهر الحديث وتركهم في البلاد...)[١].

وقد قاموا بثورة كبيرة عام ١٨٣٤م وهاجموا مدينة اللاذقية ونهبوها وفتكوا بأهلها، وقد حاول السلطان عبد الحميد الثاني أن يعيدهم إلى حظيرة الإسلام، وأرسل رجلاً من خاصته اسمه (ضيا باشا) جعله متصرفاً في لواء اللاذقية في بداية القرن الرابع عشر الهجري فأنشأ لهم المساجد والمدارس، فأخذوا يتعلمون ويصلون ويصومون، وأقنع الدولة بأنهم مسلمون فلم يعصوا له أمراً، وبعد أن ترك هذا المتصرف منصبه خربت المدارس وحرقت الجوامع أو دنست[٢].

وهذا من تفريط المسلمين تجاههم، وكم خدعت تلك العقيدة الخطيرة (التقية) المسلمين حكاماً ومحكومين، علماء ومتعلمين، فأين علماء السنة الذي لا تنطلي عليهم دسائس الباطنيين؟

إن تاريخ النصيريين تاريخ أسود ملطخ بالدماء ضد أهل السنة، وكانوا دائماً خنجراً مسموماً في جنب الأمة الإسلامية، يتآمرون ضدها في الخفاء، ويظهرون لها العداء كلما وجدوا لذلك سبيلاً، والتاريخ يشهد بأنهم كانوا دائماً في تحالف مع أعداء الإسلام.

وكان أمير الدروز بشير الشهابي المتوفى سنة ١٢٦٦هـ يقف بجنوده بجانب جيش محمد علي عند احتلاله للشام، مما سهل على جيش محمد علي هزيمة الجيش العثماني في حمص، وعبر جبال طوروس، وأوغلت جيوشه في قلب بلاد الترك، وكان هناك مراسلات بين نابليون والدروز عند حصار الفرنسيين (عكا)[٣].

أما البهائية: فقد نشأت عام ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م تحت رعاية الاستعمار الروسي واليهودية العالمية والاستعمار الإنكليزي بهدف إفساد العقيدة الإسلامية، وتفكيك وحدة المسلمين وصرفهم عن قضاياهم الأساسية، وقد ادعى البهاء المهدية، ثم ادعى النبوة، ثم ادعى الربوبية والألوهية[٤].

---

(١) انظر: حلية البشر (٣/ ١٦٠٠).
(٢) انظر: خطط الشام (١/ ٢٦٠).
(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٥٧٧).
(٤) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٨٩).

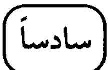
إن من المؤلم حقاً تهاون الدولة العثمانية في القضاء على تلك النحلة الخبيثة وتطبيق حكم اللّٰه وشرعه في أمثالهم.

وأما القاديانية: فهي نحلة تنسب إلى (غلام أحمد القادياني)، (**المتوفى سنة ١٣٢٦هـ**) ونسبت إلى قرية قاديان من إقليم البنجاب في الهند وهي: (حركة نشأت بتخطيط من الاستعمار الإنكليزي في القارة الهندية بهدف إبعاد المسلمين عن دينهم، وعن فريضة الجهاد بشكل خاص، حتى لا يواجهوا المستعمر باسم الإسلام)[١].

وقد ادعى القادياني النبوة ثم الألوهية، وقد كان من أبرز ملامح دعوة (غلام أحمد القادياني ميله الشديد للإنكليز وخدمته لأغراضهم في بلاد الهند، وإبطال عقيدة الجهاد لهم، وثناؤه عليهم، وحث أتباعه على نصرتهم في كل مكان..)[٢].

ويقول القادياني: (ولا يجوز عندي أن يسلك رعايا الهند من المسلمين البغاة، وأن يرفعوا على هذه الدولة المحسنة سيوفهم أو يعينوا أحداً في هذا الأمر، ويُعان على شيء أحد من المخالفين بالقول أو الفعل أو الإشارة أو المال أو التدابير المفسدة، بل هذه الأمور حرام قطعي، ومن أرادها فقط عصى اللّٰه ورسوله وضل ضلالاً مبيناً)[٣].

لقد كانت تلك الفرق مصدراً لإثارة القلاقل والفتن وإحداث الفوضى في داخل الدولة العثمانية، وكذلك في تجمعات المسلمين كالهند وغيرها، وكانت تلك الفرق لا تكل ولا تمل في تآمرها المستمر مع أعداء الإسلام، وفي خيانة المسلمين في أحرج الأوقات، وأحلك الظروف، لقد اكتوت الأمة بشرور تلك الفرق عندما ضعفت عقيدة أهل السنة في كيان الدولة القائمة عليها وفي نفوس رعاياها من أهل السنة.



غياب القيادة الربانية

إن القيادة الربانية من أسباب نهوض الأمة والتمكين لها، لأن قادة الأمة هم عصب حياتها، وبمنزلة الرأس من جسدها، فإذا صلح القادة صلحت الأمة، وإذا

(١) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان، ص ٣٨٩.
(٢) انظر: عقيدة ختم النبوة، د. عثمان عبد المنعم، ص ٢٠٩.
(٣) انظر: عقيدة ختم النبوة بالنبوة المحمدية، د. أحمد حمدان، ص ٢٥٥.

فسد القادة صار هذا الفساد إلى الأمة، ولقد فطن أعداء الإسلام لأهمية القيادة الربانية في حياة الأمة، ولذلك حرصوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانية من امتلاك نواصي الأمور وأزمة الحكم في الأمة الإسلامية، ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ (عدم تمكين البلاد الإسلامية والعربية من أن يقوم بها حاكم صالح) كما أوصى بـ (العمل على إفساد أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية بالرشوة، والفساد، والنساء، حتى تنفصل القاعدة عن القمة)[١].

وصرح القائد المستشرق البريطاني (مونتجومري وات) في (جريدة التايمز اللندنية) قائلاً: (إذا وجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام، فإن من الممكن لهذا الدين أن يظهر كإحدى القوى السياسية العظمى في العالم مرة أخرى)[٢].

وقال المستشرق الصهيوني (برنارد لويس) تحت عنوان (عودة الإسلام) في دراسة نشرها عام ١٩٧٦م: (إن غياب القيادة العصرية المثقفة؛ القيادة التي تخدم الإسلام بما يقتضيه العصر من علم وتنظيم، إن غياب هذه القيادة قد قيدت حركة الإسلام كقوة منتصرة، ومنع غياب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافساً خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي، لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سياسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة)[٣].

إن الباحث في الدولة العثمانية يجد أن القيادة الربانية كانت موجودة في عصورها المتقدمة، وخصوصاً عند فتح القسطنطينية، فنجد القادة الربانيين في المجال الجهادي، والمجال المدني، ونلاحظ الصفات المشتركة بينهم، كسلامة المعتقد، والعلم الشرعي، والثقة بالله، والقدوة، والصدق، والكفاءة، والشجاعة، والمروءة، والزهد، وحب التضحية، وحسن الاختيار للمعاونين، والتواضع وقبول النصيحة، والحلم والصبر، وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة، والحزم والإرادة القوية، والعدل والاحترام المتبادل، والقدرة على حل المشكلات، والقدرة على التعليم وإعداد القادة، وغير ذلك من الصفات.

لقد قاد محمد الفاتح الأمة في زمنه قيادة ربانية، وقد جرى الإيمان في قلبه وعروقه، وانعكس ثماره على جوارحه، وتفجرت صفات التقوى في أعماله وسكناته وأحواله، وانتقل بدولته وشعبه نحو الأهداف المرسومة بخطوات ثابتة،

---

(١) انظر: قادة الغرب يقولون، جلال العالم، ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق نفسه، ص ٢٥.

(٣) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصلابي، ص ٣٢٨.

وكان العلماء الربانيون هم قلب القيادة في الدولة وعقلها المفكر، ولذلك سارت الأمة والدولة العثمانية على بصيرة وهدى وعلم[١]، وأما في العصور المتأخرة يجد الباحث انحرافاً خطيراً في القيادة العثمانية على المستوى العسكري والعلمي، فمثلاً وصل إلى الصدارة العظمى مدحت باشا الماسوني، ووالي ولاية مصر محمد علي باشا العلماءُ والفقهاءُ، وإن المرء ليعجب من اختيار العلماء لرجل مثل (محمد علي باشا) ليتولى أمورهم، وإصرارهم عليه في تولي الحكم، أما كان أحدهم أولى به من عسكري جاهل مغرور، ويبدو أن العلماء فقدوا ثقتهم في علمهم وتهيبوا النزول إلى الميدان، وتحمل المسؤوليات العظام؛ لأنهم قد ألفوا الركون إلى حلقات العلم وتأليف الكتب، ولم يعودوا قادرين على القيام بغير ذلك من مهمات ومسؤوليات!

ومن الأمور المحزنة التي كانت تقع بين العلماء، حدوث المنافسات والضغائن بينهم، واستعانة بعضهم بالحكام واستعداء السلطة عليهم، ومتى ما حدث ذلك فإنها تسنح الفرصة للطغاة لإنزال ضرباتهم الموجعة لتقويض صف العلماء، كالخلاف الذي وقع بين الشيخ (عبد اللّه الشرقاوي) شيخ الأزهر، وبين بعض المشايخ الآخرين حيث ترتب على ذلك الخلاف صدور الأمر من محمد علي باشا إلى الشيخ الشرقاوي بلزوم داره وعدم الخروج منها ولا حتى إلى صلاة الجمعة، وسبب ذلك كما يقول الجبرتي: (أمور وضغائن ومنافسات بينه وبين إخوانه.. فأغروا به الباشا ففعل به ما ذكر، فامتثل الأمر ولم يجد ناصراً وأهمل أمره)[٢].

ويصف الشيخ مصطفى صبري حال العلماء الذين ابتعدوا عن أمور الحكم ونصح الحكام، وما هي نظرة العلمانيين للعلماء فقال: (والذين جردوا الدين في ديارنا عن السياسة كانوا هم وإخوانهم لا يرون الاشتغال بالسياسة لعلماء الدين، بحجة أنه لا ينبغي لهم وينقص من كرامتهم، ومرادهم حكر السياسة وحصرها لأنفسهم، ومخادعة العلماء بتنزيلهم منزلة العجزة، فيقبلون أيديهم، ويخيلون لهم بذلك أنهم محترمون عندهم، ثم يفعلون ما يشاءون لدين الناس ودنياهم، محررين عن احتمال أن يجيء من العلماء أمر بمعروف أو نهي عن منكر، إلا ما بعد من فضول اللسان، أو ما يكمن في القلب، وذلك أضعف الإيمان.

فالعلماء المعتزلون عن السياسة، كأنهم تواطأوا مع كل الساسة، صالحيهم وظالميهم، على أن يكون الأمر بأيديهم ويكون لهم منهم رواتب الإنعام

(١) انظر: فقه التمكين في القرآن الكريم لعلي الصلابي، ص ٣٢٨.
(٢) انظر: عجائب الآثار (٣/ ١٣٤).

والاحترام، كالخليفة المتنازل عن السلطة وعن كل نفوذ سياسي..)[١].

لقد أخلد العلماء في أواخر الدولة العثمانية إلى الأرض واتبعوا أهواءهم، وضعفوا عن القيام بواجباتهم، فكانوا بذلك قدوة سيئة للجماهير التي ترمقهم وترقبهم عن قرب، ولقد غرق الكثير منهم في متاع الدنيا وأترفوا فيها، وكممت أفواههم بدون سيف أو سوط، ولكن بإغداق العطايا عليهم من قبل الباشوات والحكام، ووضعهم في المناصب العالية ذات المرتبات الجزيلة والمزايا العظيمة، التي تكون كفيلة بإسكات أصواتهم وكبح ثورتهم واعتراضهم[٢].

(لقد كان علماء الدين دائماً في تاريخ هذه الأمة هم قادتها وموجهيها، وهم ملجأها كذلك إذا حزَّ بهم أمر، وملاذها عند الفزع.. تتجه إليهم لتتلقى علم الدين منهم، وتتجه إليهم ليشيروا عليها في أمورها الهامة، وتتجه إليهم إذا وقع عليهم ظلم من الحكام والولاة ليسعوا إلى رفع الظلم عنهم، بتذكير أولئك الحكام والولاة بربهم، وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.. وكان العلماء يضطهدون من قبل ذوي السلطان أحياناً، ويلقون في السجون أحياناً، ويؤذون في أبدانهم وأموالهم وكراماتهم أحياناً، ولكنهم يصمدون لهذا كله، تقديراً لمسؤولياتهم أمام اللّه.

وكما كان العلماء هم قادة الأمة ومرشديها في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية، كانوا كذلك دعاتها إلى الجهاد كلما حدث على الأمة عدوان.. يذكرونها باللّه واليوم الآخر، وبالجنة التي تنتظر المجاهدين الصادقين، وكانوا يشاركون في الجهاد بأنفسهم، بل يقولون الجيوش بأنفسهم في بعض الأحيان.

تلك كانت مهمة علماء الدين، والدين حي في النفوس.. وفي التاريخ نماذج عديدة لعلماء أرضوا ربهم وأدوا أمانتهم وجاهدوا في اللّه حق جهاده، وصبروا على ما أصابهم في سبيل اللّه فما ضعفوا وما استكانوا.. فأين كان العلماء في تلك الفترة التي نحن بصددها من التاريخ؟

هل كانوا في مكان القيادة الذي عهدتهم الأمة فيه إلى عهد ليس ببعيد..؟

هل كانوا حماة الأمة من العدوان؟ وحماتها من الظلم الواقع عليهم من ذوي السلطان؟

---

(١) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر (٢/ ٨٤).

(٢) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (١/ ٦٠٥).

هل كانوا هم الذين يطالبون للأمة بحقوقها السياسية وحقوقها الاجتماعية وحقوقها الاقتصادية؟

هل كانوا هم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويقومون إلى الإمام الجائر فيأمرونه، وينهونه، قتلهم أم لم يقتلهم؟

أم كان كثير منهم قد استعبدوا أنفسهم للسلطان، ومشوا في ركابه، يتملقونه ويباركون مظالمه فيمدونه في الغي، بينما البقية الصالحة منهم قد قبعت في بيوتها، أو انزوت في الدرس والكتاب، تحسب أن مهمتها قد انتهت إذا لقنت الناس العلم.. وما نريد أن نظلمهم فقد كان منهم ـ ولا شك ـ من صدع بكلمة الحق، ومنهم من ألقى بالمنصب تحت قدميه، حين أحس أنه يستعبده لأولي السلطان أو يلجمه عن كلمة الحق.. ولكنهم قلة قليلة بين الكثرة الغالبة التي راجت تلهث وراء المتاع الأرضي، أو تقبع داخل الدرس والكتاب، على ما فيها من جوانب القصور..)[1].

وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في هذه الفترة بالجمود والتحجر نتيجة لعدة عوامل أعطت أثرها عبر القرون المتوالية، ومن هذه العوامل:

١ ـ الاهتمام بالمختصرات:

قام بعض العلماء باختصار المؤلفات الطويلة بغية تسهيل حفظها لطلبة العلم، حيث غدا الحفظ هو الغاية عند العلماء والطلاب، حيث ضعفت ملكة الفهم والاستنباط عندهم، (فأصبح الفقهاء ينقلون أقوال من قبلهم، ويختصرون مؤلفاتهم في متون موجزة، ويأخذون هذه الأقوال مجردة عن أدلتها من الكتاب والسنة، مكتفين بنسبتها إلى أصحابها[2].

يقول الشيخ عبد الحميد ابن باديس ناقداً للطريقة في تدريس الفقه: واقتصرنا على قراءة الفروع الفقهية، مجردة بلا نظر، جافة بلا حكمة، وراء أسوار من الألفاظ المختصرة تفنى الأعمار قبل الوصول إليها)[3].

ويذكر الإمام الشوكاني اهتمام الناس في عصره بهذه المختصرات والخطورة التي تنطوي على ذلك فيقول: (قد جعلوا غاية مطالبهم ونهاية مقاصدهم العلم بمختصر من مختصرات الفقه التي هي مشتملة على ما هو من علم الرأي والرواية

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ٣٢٧.
(٢) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر ص ٥٦.
(٣) انظر: ابن باديس.. حياته.. آثاره (١٠٨/١).

والرأي أغلب، ولم يرفعوا إلى غير ذلك رأساً من جميع أنواع العلوم، فصاروا جاهلين بالكتاب والسنة وعلمهما جهلاً شديداً، لأنه تقرر أن حكم الشريعة منحصر في ذلك المختصر، وأن ما عداه فضلة أو فضول، فاشتد شغفهم به وتكالبهم عليه، ورغبوا عما عداه، وزهدوا فيه زهداً شديداً»[١].

٢ ـ الشروح والحواشي والتقريرات:

يقول الشوكاني ـ رحمه اللَّه ـ الذي درَّس الكثير من هذه الشروح والحواشي في مختلف العلوم الدينية واللغوية منتقداً لها: (مع أن فيها جميعاً ما لا تدعو إليه الحاجة بل غالبها كذلك، ولا سيما تلك التدقيقات التي في شروحها وحواشيها فإنها من علم الكتاب والسنة بمعزل)[٢].

لقد كانت المؤلفات على كثرتها من شروح وحواش وغير ذلك، من الأغلال التي كبلت العقول، وأدت إلى جمود العلوم عبر قرون عديدة، وكانت توجد بعض الحواشي والشروح المفيدة، ولكنها لا تكاد تذكر، وكانت مناهج التعليم في تلك الفترة بعيدة كل البعد عن منهج أهل السنة والجماعة، وكانت المعاهد الإسلامية كلها ـ تقريباً ـ بعيدة عن ذلك المنهج الإسلامي الأصيل.

فالأزهر مثلاً وهو المعهد الإسلامي الكبير والجامعة العتيقة كان مركزاً لعلوم المتكلمين البعيدة عن روح الإسلام ومبادئه، يقول أحد الدارسين في الأزهر عن علم الكلام:

(من العلوم التي لم أنتفع بدراستها في الأزهر على الإطلاق علم الكلام، فقد درسته بالأزهر عدة سنوات، ولكني لم أعرف منه شيئاً عن اللَّه ذا بال، وإنما انغمست في اصطلاحات زادت تفكيري غموضاً واضطراباً حتى تمنيت إيمان العوام..)[٣].

لقد أصاب المناهج الإسلامية في تلك الفترة بالإضافة إلى الجمود موجة من الجفاف حيث: (إن العصور المتأخرة بعدت بعداً كبيراً عن روح الإسلام واهتمت بالجسم والمادة حتى أصبحت الدراسات الإسلامية دراسة لا حياة فيها ولا روح، وجرت عدوى هذه الدراسات إلى جميع أبواب الفقه حتى الأبواب التي كان يجب أن تكون دراسة الروح أهم عنصر فيها..)[٤].

---

(١) انظر: أدب الطلب، ص ٥٩.

(٢) انظر: البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع (٨٦/١).

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٤٢، ٤٣).

(٤) انظر: المجتمع الإسلامي المعاصر، ص ٢١٠.

٣ ـ الإجازات:

من عوامل تدهور الحياة العلمية في تلك الفترة التساهل في منح الإجازات؛ فكانت تعطى في العصر المتأخر للدولة العثمانية جزافاً، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته، وكثيراً ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالب في مكة بالإجازات دون أن يراه أو يختبره[١].

فكان هذا التساهل من الأمور التي شغلت المسلمين عن تحصيل العلوم كما كان ينبغي، وهكذا كان التساهل في منح الإجازات عاملاً مهماً من عوامل انحدار المستوى التعليمي، وضعف العلوم الشرعية، حيث أضحى الهدف عند كثير من المنتسبين إلى العلم، حيازة أكبر عدد من الإجازات الصورية التي لم يكن لها في كثير من الأحيان أي رصيد علمي في الواقع[٢].

٤ ـ وراثة المنصب العلمي:

أصبحت المناصب العلمية في أواخر الدولة العثمانية بالوراثة في الأمور العلمية المهمة كالتدريس والفتوى والإمامة وحتى القضاء، فقد صارت تلك المناصب تورث بموت من كانوا يتولونها، تماماً كما تورث الدور والضياع والأموال، فكثيراً ما كان يحدث أن يموت شيخ يدرس عليه، فلا يوارى في التراب حتى ينتقل منصبه وكرسيه إلى ولده أو أخيه أو أحد أقاربه، وقد يكون الوارث قليل الفهم مزجي البضاعة في العلم، ولكن لا بد للتصدر للإقراء والتدريس وعدم إخلاء الكرسي الذي قد يتربع عليه غريب عن أهل المتوفى حتى ولو كان جديراً بخلافته في منصبه الذي رحل عنه[٣].

يقول المؤرخ التركي أحمد جودت المتوفى عام ١٣١٢هـ[٤] متحدثاً عن تلك الظاهرة السيئة في الدولة العثمانية: (وصار أبناء الصدور والقضاة ينالون وظيفة التدريس وهم أحداث وأطفال، ويترقون لذلك في الوظائف، حتى إن الواحد منهم لتأتيه نوبته في المولوية[٥] وما طر شاربه ولا اخضر عذاره وكان ينال التدريس أيضاً كل ذي وجاهة واعتبار حتى صارت المراتب والمناصب العلمية تؤخذ بالإرث،

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٥٩).

(٢) و (٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٦٤).

(٤) كان وزيراً في البلاط العثماني وكتب تاريخ جودت بالتركية في ١٢ مجلداً.

(٥) المولوية: ثاني رتبة في القضاء العثماني بعد رتبة قاضي العسكر.

فسهل على الوزراء ورجال الدولة تقليدها لأبنائهم وغيرهم، فازدحم عليها الغوغاء وصار الجهال يموج بعضهم في بعض والتبس الأمر وفسد أي فساد)[١].

ويقول (محمد كرد علي) في حديثه عن الأحوال العلمية في الشام وترديها في العصر العثماني: (وقد قويت في هذا العصر قاعدة خبر الأب للابن، وكان المفتي (أبو السعود) من مشايخ الإسلام في الأستانة أول من ابتدعها وأخرجها للناس، فأصبح التدريس والتولية والخطابة والإمامة وغيرها من المسالك الدينية توسد إلى الجهلة بدعوى أن آباءهم كانوا علماء، وهم يجب أن يرثوا وظائفهم ومناصبهم وإن كانوا جهلة، كما ورثوا حوانيتهم وعقارهم وفرشهم وكتبهم، بل بلغت الحال بالدولة إذ ذاك أن كانت تولي القضاء الأميين، وكم من أمي غدا في (دمشق) و (حلب) و (القدس) و (بيروت) قاضي القضاة، أما في الأقاليم فربما كان الأميون أكثر من غيرهم. . .)[٢].

لقد كانت لتلك العادة السيئة آثار وخيمة في انحدار مستوى التعليم، وضعف الحياة العلمية عند المسلمين، وذلك بتوارث تلك المناصب الدينية، وحكرها في أسر معينة، وبالتالي أثرت تلك العادة في إيجاد علماء ربانيين متجردين لدين الله تعالى همهم إحقاق العدل، ونصرة المظلوم، وإعزاز الدين.



رفض فتح باب الاجتهاد

أصبحت الدعوى بفتح باب الاجتهاد في أواخر الدولة العثمانية تهمة كبيرة تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر، وكان من التهم التي وجهها خصوم الدعوة السلفية إلى علمائها دعوى الاجتهاد، وكانت تهمة شديدة في ذلك الزمن مع أن أحداً منهم لم يقل بذلك، وكانت الدعوة إلى قفل باب الاجتهاد توارثها المتعصبون على مر العصور وأصبح حرصهم في أواخر الدولة العثمانية ظاهراً، ونافحوا من أجل عدم فتحه، ومقاومة كل من يحوم حوله، مما شجع المتغربون بالسعي الدؤوب لاستيراد المبادئ والنظم من أوروبا، ولقد ترتب على إغلاق باب الاجتهاد آثار خطيرة لا تزال أضرارها تنخر في حياة المسلمين إلى يومنا هذا.

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٦٨).

(٢) انظر: خطط الشام (٣/ ٧٠).

فحين يتوقف الاجتهاد مع وجود دواعيه ومتطلباته . . فماذا يحدث؟

يحدث أحد أمرين: إما أن تجمد الحياة وتتوقف عن النمو، لأنها محكومة بقوالب لم تعد تلائمها، وإما أن تخرج على القوالب المصبوبة، وتخرج في ذات الوقت من ظل الشريعة، لأن هذا الظل لم يمد بالاجتهاد حتى يعطيها.

وقد حدث الأمران معاً، الواحد تلو الآخر . . الجمود أولاً ثم الخروج بعد ذلك من دائرة الشريعة[١].

لقد عانت الأمة من قفل باب الاجتهاد، وكانت الدولة العثمانية في أواخر عهدها لم تعط هذا الباب حقه، وكانت عجلة الحياة أسرع وأقوى من الجامدين والمقلدين الذين ردوا كل جديد، وخرج الأمر من أيديهم، (وهكذا توقفت الحركة العقلية عند المسلمين إزاء كل جديد تلده الحياة والحياة ولود لا تتوقف عن الولادة أبداً، فهي تلد كل يوم جديداً لم تكن تعرفه الإنسانية من قبل . . وكان من هذا أن مضى الناس ـ من غير المسلمين ـ يواجهون كل جديد، ويتعاملون معه، ويستولدون منه جديداً . . وهكذا سار الناس ـ من غير المسلمين ـ قدماً في الحياة، ووقف المسلمون حيث هم لا يبرحون مكانهم الذي كان عليه الآباء والأجداد من بضعة قرون)[٢] واستمر التعصب المذهبي في إضعاف المستوى التعليمي، وانحدار العلوم وجمودها، وتكبيل العقول والأفهام، والحجر عليها بالإضافة إلى ما تسبب فيه من تفريق كلمة المسلمين وإفساد ذات بينهم، وزرع العداء والشقاق بين أفرادهم وجماعاتهم، بعد أن تحزبوا طوائف وجماعات، كل طائفة تناصر مذهبها وتعادي غيرها من أجله، وفي تلك الفترة تفاقم هذا التعصب وعم الأقطار الإسلامية لم يسلم منه قطر ولا مصر؛ فالجامع الأزهر كان ميداناً رحباً للصراعات المذهبية خصوصاً بين الشوافع والأحناف وذلك من أجل التنافس الشديد على مشيخة الأزهر[٣].

إن العصبية المذهبية أوجدت حواجز كثيفة بين المسلمين في القرون الأخيرة، فأضعفت شعورهم بوحدتهم الإسلامية اجتماعياً وسياسياً، وأورثت فيما بينهم من العداوات ما شغلهم عن أعداء الإسلام على اختلاف أنواعهم، وعن الأخطار المحدقة بالمسلمين والإسلام . .)[٤].

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص ١٥٩.
(٢) انظر: سد باب الاجتهاد وما ترتب عليه، د. عبد الكريم الخطيب، ص ١٤٤.
(٣) انظر: عجائب الآثار (٢/ ٢٤٢).
(٤) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية (٢/ ٨٦).

لقد كان التعصب المذهبي منحرفاً عن منهج اللّه تعالى، وزاد هذا الانحراف عمقاً في حجر العقول، وجمود العلوم، وتفتيت الصف الإسلامي، مما كان له أعظم الأثر في ضعف الدولة العثمانية وانحطاطها، وانشغالها بمشاكلها الداخلية، في الوقت الذي كانت المؤمرات قد أحاطت بها وشرع الصليبيون في الإجهاز على الرجل المريض.

ثامناً

انتشار الظلم في الدولة

إن الظلم في الدولة كالمرض في الإنسان، يعجل في موته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الدولة يعجل في هلاكها بما يحدثه فيها من آثار مدمرة تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها اللّه هي الأجل المقدر لها، أي الذي قدره اللّه لها بموجب سننه العامة التي وضعها لآجال الأمم بناء على ما يكون فيها من عوامل البقاء كالعدل، أو من عوامل الهلاك كالظلم، التي يظهر أثرها وهو هلاكها بعد مضي مدة محددة يعلمها اللّه[1] قال تعالى: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٤] قال الآلوسي في تفسيره لهذه الآية: ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ﴾ أي ولكل أمة من الأمم الهالكة أجل، أي: وقت معين مضروب لاستئصالهم[2]. ولكن هلاك الأمم وإن كان شيئاً مؤكداً ولكن وقت حلوله مجهول لنا، أي أننا نعلم يقيناً أن الأمة الظالمة تهلك حتماً بسبب ظلمها حسب سنة اللّه تعالى في الظلم والظالمين، ولكننا لا نعرف وقت هلاكها بالضبط، فلا يمكن لأحد أن يحدد الأيام ولا السنين، وهو محدد عند اللّه تعالى[3].

إن سنة اللّه مطردة في هلاك الأمم الظالمة، قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ * وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ * وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٠ ـ ١٠٢].

إن الآية الكريمة تبين أن عذاب اللّه ليس مقتصراً على من تقدم من الأمم

(١) انظر: السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان ص ١٢١.
(٢) انظر: تفسير الآلوسي (٨/ ١١٢).
(٣) انظر: السنن الإلهية، ص ١٢١.

الظالمة، بل إن سنته تعالى في أخذ كل الظالمين سنة واحدة، فلا ينبغي أن يظن أحد أن هذا الهلاك مقصور على أولئك الظلمة السابقين، لأن اللّٰه تعالى لما حكى أحوالهم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ فبين اللّٰه تعالى أن كل من شارك أولئك المتقدمين في أفعالهم التي أدت إلى هلاكهم فلا بد أن يشاركهم في ذلك الأخذ الأليم الشديد؛ فالآية تحذر من وخامة الظلم. إن الدولة الكافرة قد تكون عادلة بمعنى أن حكامها لا يظلمون الناس، والناس أنفسهم لا يتظالمون فيما بينهم، فهذه الدولة مع كفرها تبقى، إذ ليس من سنته تعالى إهلاك الدولة بكفرها فقط، ولكن إذا انضم إلى كفرها ظلم حكامها للرعية وتظالم الناس فيما بينهم[١] قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود: ١١٧].

قال الإمام الرازي في تفسيره: (إن المراد من الظلم في هذه الآية الشرك والمعنى أن اللّٰه تعالى لا يهلك أهل القرى بمجرد كونهم مشركين، إذا كانوا مصلحين في المعاملات فيما بينهم، يعامل بعضهم بعضاً على الصلاح، وعدم الفساد)[٢].

وفي تفسير القرطبي قوله تعالى: ﴿بِظُلْمٍ﴾ أي: بشرك وكفر: ﴿وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ أي: فما بينهم في تعاطي الحقوق، ومعنى الآية: إن اللّٰه تعالى لم يكن ليهلكهم بالكفر وحده حتى ينضاف إليه الفساد، كما أهلك قوم شعيب ببخس المكيال والميزان وقوم لوط باللواط[٣].

قال ابن تيمية في هلاك الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة: (وأمور الناس إنما تستقيم مع العدل الذي يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظلم في الحقوق وإن لم تشترك في إثم، ولهذا قيل: إن اللّٰه يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة وإن كنت مسلمة، ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة)[٤].

لقد قام بعض الباشوات بأفعال قبيحة وسفكوا الدماء واغتصبوا الأموال؛ فهذا إبراهيم باشا المعروف بدالي أحد وزراء السلطان مراد الثالث وكان أمير الأمراء في

(١) انظر: السنن الإلهية، ص ١٢٢.
(٢) انظر: تفسير الرازي (١٨/ ١٦).
(٣) انظر: تفسير القرطبي (٩/ ١١٤).
(٤) انظر: رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن تيمية، ص ٤٠.

ديار بكر بأسرها؛ ففتك فيها وظلم أهلها وأظهر من أنواع الظلم أشياء مستكرهة جداً، منها الاعتداء على الأعراض، ونهب الأموال، وفعل الأفاعيل العظيمة، ولما وصل الأمر للسلطان وعقد مجلس القضاء وهاب الناس أن يشهدوا عليه لم يستطع القاضي أن يدقق في الدعوى لأن أخته كانت عند السلطان مراد مقبولة جداً، وانصرف خصماؤه، وقرره السلطان في ديار بكر، فذهب إليها ناوياً على إهلاك كل من اشتكى عليه، وأهلك منهم خلقاً تحت العذاب، ووصل الأمر إلى أن ثار عليه أهل البلد وقاموا عليه قومة رجل واحد فتحصن في القلعة وصار يقذف القذائف بالمدافع على أهل المدينة حتى قتل منهم خلقاً كثيراً[١].

وما قام به الباشا محمد علي من ظلم أهل مصر وأهل الشام، والحجاز معروف، وقد ذكرناه في هذا الكتاب، وقد اشتد ظلم الأتراك للعرب، والأكراد، والألبان مع مجيء الاتحاد والترقي للحكم، بل قامت تلك العصابة بظلم الناس في داخل تركيا وخارجها، وقد ذكرنا ما تعرض له السلطان عبد الحميد الثاني من ظلمهم، وعسفهم، وجورهم، فجرت فيهم سنّة اللّه التي لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، فانتقم من الظالمين وجعل بأسهم فيما بينهم وزالت دولة الخلافة العثمانية من الوجود.

تاسعاً

الترف والانغماس في الشهوات

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أراد بالذين ظلموا: تاركي النهي عن المنكرات، أي لم يهتموا بما هو ركن عظيم من أركان الدين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإنما اهتموا بالتنعم والترف والانغماس في الشهوات والتطلع إلى الزعامة والحفاظ عليها والسعي لها وطلب أسباب العيش الهنيء[٢].

وقد مضت سنّة اللّه في المترفين الذين أبطرتهم النعمة وابتعدوا عن شرع اللّه تعالى بالهلاك والعذاب. قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا

(١) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (٢/٩١٦، ٩١٧).

(٢) انظر: السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، ص ١٨٦.

قَوْمًا ءَاخَرِينَ ۞ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١ ـ ١٣].

ومن سنّة اللّه تعالى جعل هلاك الأمة بفسق مترفيها، قال تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

وجاء في تفسيرها: (وإذا دنا وقت هلاكها أمرنا بالطاعة مترفيها، أي متنعميها وجباريها وملوكها ففسقوا فيها، فحق عليها القول فأهلكناها، وإنما خص اللّه تعالى المترفين بالذكر مع توجه الأمر بالطاعة إلى الجميع؛ لأنهم أئمة الفسق ورؤساء الضلال، وما وقع من سوئهم إنما وقع باتباعهم وإغوائهم، فكان توجيه الأمر إليهم آكد)[١].

وحدث في زمن السلطان محمد بن إبراهيم: (زينت دار الخلافة ثلاثة أيام وكان السلطان محمد إذ ذاك ببلدة سلسترة بروم إيلي، فكتب إلى قائم مقام الوزير بالقسطنطينية عبدي باشا النشابي أنه يريد القدوم إلى دار المملكة وأنه لم يتفق له رؤية زينة بها مدة عمره، وأمره بالنداء لتهيئة زينة أخرى إذا قدم، فوقع النداء قبل قدوم السلطان بأربعين يوماً وتهيأ الناس للزينة، ثم قدم السلطان فشرعوا في التزيين وبذلوا جهدهم في التأنق فيها، واتفق أهل العصر على أنه لم يقع مثل هذه الزينة في دور من الأدوار، وكنت الفقير إذ ذاك بقسطنطينية وشاهدتها ولم يبق شيء من دواعي الطرب إلا صرفت إليه الهمم ووجهت إليه البواعث، واستغرقت الناس في اللذة والسرور، واستوعب جميع آلات النشاط والحبور، وفشت المناهي، وعلمت العقلاء أن هذا الأمر كان غلطاً وأن ارتكابه كان جرماً عظيماً، وما أحسب ذلك إلا نهاية السلطنة وخاتمة كتاب السعادة والميمنة، ثم طرأ الانحطاط وشوهد النقصان وتبدل الربح بعدها بالخسران..)[٢].

وفي سنة تسعين وتسعمائة للهجرة احتفل السلطان مراد بن سليم الثاني بختان ولده السلطان محمد، ووضع لذلك فرحاً لم يقع في زمن أحد من الخلفاء والملوك، وامتدت الولائم والفرحة واللهو والطرب مدة خمسة وأربعين يوماً، وجلس للفرجة في دار إبراهيم باشا بمحلة آت ميدان وأغدق النعم العظيمة، ورأيت في تاريخ الكبرى أنه جعل صواني صغاراً من ذهب وفضة وملأ الذهب بالفضة والفضة بالذهب، وألقى في ذلك لأرباب الملاهي وغيرهم من طالبي الإحسان[٣].

---

(١) انظر تفسير الآلوسي (١٥/ ٤٢).

(٢) انظر: المختار المصون من أعلام القرون (٢/ ١١٦٣، ١١٦٤).

(٣) المصدر السابق نفسه (٢/ ١١٥٤، ١١٥٥).

وهذا انحراف خطير عن المنهج الذي سارت عليه الدولة في زمن قوتها وصولتها، وتمكينها، وكانت من وصايا محمد الفاتح لولي عهده (واحرس أموال بيت المال من أن تتبدد)، (ولا تصرف أموال الدولة في ترف أو لهو وأكثر من قدر اللزوم فإن ذلك من أعظم أسباب الهلاك)، فكان من الطبيعي بعد هذا الانحراف الخطير والانغماس في الترف واللهو والشهوات أن تزول الدولة بعد ضياع مقومات بقائها.

عاشراً

الاختلاف والفرقة

إن سنة اللّه تعالى ماضية في الأمم والشعوب لا تتبدل ولا تتغير ولا تجامل، وجعل اللّه سبحانه تعالى من أسباب هلاك الأمم الاختلاف وقال ﷺ: «**فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا**» وفي رواية (**فأهلكوا**)[١].

وعند ابن حبان والحاكم عن ابن مسعود: فإنما أهلك من كان قبلكم الاختلاف[٢].

قال ابن حجر العسقلاني: وفي الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف[٣].

وقال ابن تيمية ـ رحمه اللّه ـ: (وأمرنا اللّه تعالى بالاجتماع والائتلاف ونهانا عن التفرق والاختلاف)[٤].

والاختلاف المهلك للأمة هو الاختلاف المذموم، وهو الذي يؤدي إلى تفريقها وتشتتها وانعدام التناصر فيما بين المختلفين، كل طرف يعتقد ببطلان ما عند الطرف الآخر، وقد يؤول الأمر إلى استباحة قتال بعضهم بعضاً[٥].

(وإنما كان الاختلاف علة لهلاك الأمة كما جاء في حديث رسول اللّه ﷺ، لأن الاختلاف المذموم الذي ذكرنا بعض أوصافه يجعل الأمة فرقاً شتى مما يضعف الأمة، لأن قوتها وهي مجتمعة أكبر من قوتها وهي متفرقة، وهذا الضعف العام الذي يصيب الأمة بمجموعها يجرئ العدو عليها فيطمع فيهاجمها، ويحتل أراضيها ويستولي عليها ويستعبدها، ويمسخ شخصيتها، وفي ذلك انقراضها وهلاكها)[٦].

(١) انظر: صحيح البخاري بشرح العسقلاني (٩/١٠١، ١٠٢).
(٢) و (٣) انظر: صحيح البخاري بشرح العسقلاني (٩/١٠٢).
(٤) انظر: مجموع الفتاوى (١٩/١١٦).
(٥) و (٦) انظر: السنن الإلهية، ص ١٣٩.

إن من الدروس المهمة في هذه الدراسة التاريخية أن توقي الهلاك بتوقي الاختلاف المذموم، لأن الاختلاف كان سبباً من الأسباب في ضياع الدولة العثمانية وهلاكها واندثارها وإن من أخطر ما نعاني منه الآن الخلاف في صفوف الإسلاميين القائمين بواجب الدعوة إلى اللّٰه تعالى، وهذا الخلاف يؤدي إلى ضعف الأمة إذا لم تأخذ بسبل الوقاية منه.

يقول الشيخ عبد الكريم زيدان: (والاختلاف كما يضعف الأمة ويهلكها يضعف الجماعة المسلمة التي تنهض بواجب الدعوة إلى اللّٰه ثم يهلكها، لهذا كان شر ما تبتلى به الجماعة المسلمة وقوع الاختلاف المذموم فيما بينها بحيث يجعلها فرقاً شتى، بحيث ترى كل فرقة أنها على حق وصواب وأن غيرها على خطأ وضلال، وتعتقد كل فرقة أنها هي التي تعمل لمصلحة الدعوة وهيهات أن تكون الفرقة والتشتت والاختلاف المذموم في مصلحة الدعوة، أن أن مصلحة الدعوة تأتي عن طريق التفريق، ولكن الشيطان هو الذي يزين الفرقة والتفريق في أعين المتفرقين المختلفين، فيجعلهم يعتقدون أن اختلافهم وتفرقهم في مصلحة الدعوة.

والاختلاف في الجماعة لا يقف تأثيره عند حد إضعاف الجماعة وإنما يضعف تأثيرها في الناس، وتجعل المعرضين ينفثون باطلهم في الناس ويقولون: جماعة سوء تأمر الناس بأحكام الإسلام، والإسلام يدعو إلى الألفة والاجتماع وينهى عن الاختلاف، وهي تخالفه إذ هي متفرقة مختلفة فيما بينها، كل فرقة تعيب الأخرى وتدعي أنها وحدها على الحق. ثم يؤول الأمر إلى انحسار تأثير الجماعة في المجتمع ثم اضمحلالها واندثارها وقيام جماعات جديدة مكانها هي فرق المنفصلين عنها، ووقائع التاريخ البعيد والقريب تؤيد ما نقول)[1].

لقد ابتليت الدولة العثمانية خصوصاً في أواخر عهدها بالاختلاف والتفرق بين الزعماء والسلاطين، فقد حاول بعض الحكام المحليين الاستقلال الذاتي عن الحكومة المركزية بإطالة فترة حكمهم ومحاولة تأسيس أسر محلية (المماليك في العراق، آل العظم في سوريا، المعنيون والشهابيون في لبنان، ومحمد علي في مصر، ظاهر العمر في فلسطين، أحمد الجزار في عكا، علي بك الكبير في مصر، القرامليون في ليبيا)[2] وهذا الصراع بين الحكام المحليين والدولة العثمانية ساهم في إضعافها ثم زوالها وسقوطها. ولقد ذكر بعض المؤرخين أسباب السقوط

(١) انظر: السنن الإلهية، ص ١٤٠، ١٤١.

(٢) انظر: العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، ص ٩٤.

وحدث لهم تخليط بين الأسباب في السقوط وبين الآثار المترتبة على الابتعاد عن شرع اللّه تعالى.

إن الحديث عن الضعف السياسي والحربي والاقتصادي والعلمي والأخلاقي والاجتماعي وكيفية القضاء على هذا الضعف، والحديث عن الاستعمار والغزو الفكري والتنصير وكيفية مقاومتها لا يزيد على محاولة القضاء على تلك الأعراض المزعجة، ولكن لا يمكنه أبداً أن ينهض بالأمة التي أصيبت بالخواء العقدي، وما لم يتم محاربة الأسباب الحقيقية والقضاء عليها فإنه لا يمكن بحال من الأحوال القضاء على تلك الآثار الخطيرة.

إن الآثار كانت متشابكة ومتداخلة، يؤثر كل منها في الآخر تأثيراً عكسياً، فالضعف السياسي مثلاً يؤثر في الضعف الاقتصادي، ويتأثر به، وهكذا.

إن كثيراً من المحاولات التي بذلت في العالم الإسلامي من أجل إعادة دولة الإسلام، وعزته وقوته ركزت على الآثار ولم تعالج الأسباب الحقيقية التي كانت خلف ضياع الدولة العثمانية وضعف الأمة، وانحطاطها.

إن جهود النصارى، واليهود، والعلمانية ما كانت لتؤثر في الدولة العثمانية إلا بعد أن انحرفت عن شرع اللّه وفقدت شروط التمكين، وأهملت أسبابه المادية والمعنوية، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١].

نتائج البحث

١ ـ تولى حكم الدولة العثمانية بعد مراد الخامس السلطان عبد الحميد الثاني في عام ١٢٩٣هـ، وضغط عليه من قبل مدحت باشا فأعلن الدستور، ومارس الوزراء استبدادهم واشتدت سياستهم التغريبية بقيادة جمعية العثمانيين الجدد، والتي كانت تضم النخبة المثقفة التي تأثرت بالغرب، وعندما حانت الفرصة للسلطان عبد الحميد ألغى الدستور، وشرّد زعماء التغريب، وعمل على إضعاف سلطانهم، وشرع في إصلاح الدولة وفق التعاليم الإسلامية وحرص على تطبيق الشريعة الإسلامية.

٢ ـ عمل السلطان عبد الحميد على تشكيل جهاز استخباراتي قوي لحماية الدولة من الداخل وجمع معلومات عن أعدائه من الخارج، وأخمد ثورات في البلقان وتمردات داخلية وكان جهاز الاستخبارات من الوسائل المهمة عند السلطان في القضاء على التمردات الداخلية في حينها.

٣ ـ دخلت الدولة العثمانية في حرب ضروس مع روسيا وانهزمت أمامها واضطرت لعقد معاهدة سان ستفانو معها ثم بعد ذلك كان مؤتمر برلين في ألمانيا.

٤ ـ ظهرت فكرة الجامعة الإسلامية في معترك السياسة في زمن السلطان عبد الحميد، الذي اهتم بهذه الفكرة لدعم أواصر الأخوة بين المسلمين في كل مكان حتى تستطيع الأمة أن تقف ضد الأطماع الصليبية.

٥ ـ شرع السلطان عبد الحميد في تنفيذ مخططه للوصول إلى الجامعة الإسلامية بواسطة وسائل متعددة منها: الاتصال بالدعاة، وتنظيم الطرق الصوفية، والعمل على تعريب الدولة، وإقامة مدرسة العشائر، وإقامة خط سكة حديد الحجاز، وإبطال مخططات الأعداء.

٦ ـ حاول السلطان عبد الحميد التضييق على يهود الدونمة عندما علم بقوتهم ومؤامراتهم ضد الإسلام، لذلك قام يهود الدونمة بوضع خطة استراتيجية مضادة له، حيث تحركوا ضده على مستوى الرأي العام العثماني والجيش،

وقاموا بدعم المحافل الماسونية للإطاحة به، واستخدموا شعارات الحرية، والديمقراطية وإزاحة المستبد، وعلى هذا الأساس قاموا بنشر الشقاق والتمرد في الدولة وبين صفوف الجيش، وكان يهود الدونمة يشكلون اللبنة الأولى لتنفيذ المخططات اليهودية العالمية التي تعمل على تحقيق المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

٧ ـ كان السلطان **عبد الحميد** العائق القوي أمام مخططات حكماء صهيون فعملوا على ترغيبه بالمال فلم يستطيعوا، وكان يتخذ التدابير اللازمة في سبيل عدم بيع الأراضي إلى اليهود في فلسطين، ولم يعط اليهود أي امتياز من شأنه أن يؤدي إلى تغلب اليهود على أراضي فلسطين.

٨ ـ تحركت الصهيونية العالمية، لتدعيم أعداء السلطان **عبد الحميد**، وهم المتمردون الأرمن، والقوميون البلقان، وحركة حزب الاتحاد والترقي، والوقوف مع كل حركة انفصالية عن الدولة العثمانية.

٩ ـ استطاعت جمعية الاتحاد والترقي أن تعزل السلطان **عبد الحميد الثاني** عن الحكم، وقد تحصلت على دعم من الدول الأوروبية، واليهود، والمحافل الماسونية، للوصول إلى هذا الهدف.

١٠ ـ كانت جمعية الاتحاد والترقي لا تستطيع مقاومة الحلفاء بعد هزيمتها في الحرب العالمية الثانية، واضطر زعماؤها إلى الفرار إلى ألمانيا وروسيا.

١١ ـ استطاع الإنكليز واليهود أن يدفعوا بمصطفى كمال نحو زعامة الدولة العثمانية، وقام الأخير بتنفيذ مخطط مرسوم انتهى بتحقيق شروط كرزون الأربعة هي: قطع كل صلة لتركيا بالإسلام، إلغاء الخلافة الإسلامية إلغاءً تاماً، إخراج الخليفة وأنصار الخلافة والإسلام من البلاد، ومصادرة أموال الخليفة، واتخاذ دستور مدني بدلاً من دستور تركيا القديم.

١٢ ـ عمل مصطفى كمال على سلخ تركيا من عقيدتها وإسلامها، وحارب التديّن، وضيق على الدعاة، ودعا إلى السفور والاختلاط، إلا أن صوت الحق في تركيا قاوم العلمانية بشدة، وظهرت حركة سعيد النورسي وحزب السلامة الذي أصبح فيما بعد حزب الرفاه وما زال الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشد والغيّ، على أشدّه في تركيا.

١٣ ـ إن أسباب سقوط الدولة العثمانية كثيرة جامعها: هو الابتعاد عن تحكيم شرع اللّه تعالى الذي جلب للأفراد والأمة تعاسة وضنكاً في الدنيا، وإن آثار الابتعاد

عن شرع اللّه ظهرت في وجهتها الدينية، والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.

١٤ ـ إن انحراف سلاطين الدولة العثمانية المتأخرين عن شرع اللّه وتفريط الشعوب الإسلامية الخاضعة لهم في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أثر في تلك الشعوب، وكثرت الاعتداءات الداخلية بين الناس، وتعرضت النفوس للهلاك، والأموال للنهب، والأراضي للاغتصاب، بسبب تعطل أحكام اللّه فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن، وبلايا تولدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنهم حتى بعد زوالهم.

١٥ ـ إن من سنن اللّه تعالى المستخرجة من حقائق التاريخ، أنه إذا عُصي اللّه تعالى ممن يعرفونه سلط اللّه عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلط النصارى على المسلمين، وغاب النصر عن الأمة وحرمت من التمكين، وأصبحت في فزع وخوف وتوالت عليها المصائب، وضاعت الديار، وتسلط الكفار.

١٦ ـ لقد أصيبت الأمة بانحراف شديد في مفاهيم دينها، كعقيدة الولاء والبراء، ومفهوم العبادة، وانتشرت مظاهر الشرك والبدع والخرافات.

١٧ ـ إن من أعظم الانحرافات التي وقعت في تاريخ الأمة الإسلامية، ظهور الصوفية المنحرفة كقوة منظمة في المجتمع الإسلامي تحمل عقائد وأفكاراً وعبادات بعيدة عن كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، وقد قوي عود الصوفية المنحرفة واشتدت شوكتها في أواخر العصر العثماني.

١٨ ـ كانت الفرق المنحرفة قد استفحل أمرها، خصوصاً مع مجيء الاستعمار الصليبي الذي طوق الأمة الإسلامية، فكانوا على عادتهم دائماً مع أعداء المسلمين عوناً لهم وجنداً مخلصين لقيادتهم، ومن أشهر هذه الفرق، الشيعة الاثنا عشرية، والدروز والنصيرية، والإسماعيلية، والقاديانية والبهائية وغيرها من الفرق الضالة المحسوبة على الإسلام.

١٩ ـ أصبح كثير من العلماء ألعوبة بيد الحكام الجائرين، وتسابقوا للحصول على الوظائف والمراتب وغاب دورهم المطلوب منهم، وكان من الطبيعي أن تصاب العلوم الدينية في نهاية الدولة العثمانية بالجمود والتحجر، واهتم العلماء بالمختصرات، والشروح والحواشي والتقريرات، وتباعدوا عن روح الإسلام الحقيقية المستمدة من كتاب اللّه وسنة رسوله ﷺ، ورفض كثير من العلماء فتح باب الاجتهاد، وأصبحت الدعوة لفتح باب الاجتهاد تهمة كبيرة

تصل إلى الرمي بالكبائر، وتصل عند بعض المقلدين والجامدين إلى حد الكفر.

٢٠ - انتشر الظلم في الدولة العثمانية، والظلم كالمرض في الإنسان يعجل بموته بعد أن يقضي المدة المقدرة له وهو مريض، وبانتهاء هذه المدة يحين أجل موته، فكذلك الظلم في الأمة يعجل في هلاكها، بما يحدثه فيها من آثار مدمرة، تؤدي إلى هلاكها واضمحلالها خلال مدة معينة يعلمها اللّه، هي الأجل المقدر لها، ولذلك زالت الدولة العثمانية من الوجود، ومما يعجل بزوال الدول أيضاً انغماسها في الشهوات والترف وشدة الاختلاف والتفرق.

٢١ - لقد ترتب على ابتعاد الأمة عن شرع ربها آثار خطيرة، كالشعف السياسي، والحربي، والاقتصادي، والعلمي، والأخلاقي، والاجتماعي. وفقدت الأمة قدرتها على المقاومة، والقضاء على أعدائها، فاستُعمرت، وغُزيت فكرياً، نتيجة لفقدها لشروط التمكين، وابتعادها عن أسبابه المادية والمعنوية، وجهلها بسنن اللّه في نهوض الأمم وسقوطها. قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

٢٢ - إن هذا المجهود المتواضع قابل للنقد والتوجيه وما هي إلا محاولة متواضعة هدفها عوامل نهوض الأمة وأسباب سقوطها، وبيني وبين الناقد قول الشاعر:

إن تجد عيباً فسد الخللا   جلّ من لا عيب فيه وعلا

أسأل اللّه العلي العظيم رب العرش الكريم أن يتقبل هذا الجهد قبولاً حسناً وأن يبارك فيه، وأن يجعله من أعمالي الصالحة التي أتقرب بها إليه، وأن لا يحرم إخواني الذين أعانوني على إكماله من الأجر والمثوبة، وأختم هذا الكتاب بقول اللّه تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

ويقول الشاعر:

أنا الفقير إلى رب البريات   أنا المسكين في مجموع حالاتي
أنا الظلوم لنفسي وهي ظالمتي   والخير يأتينا من عنده يأتي
لا أستطيع لنفسي جلب منفعة   ولا عن النفس لي دفع المضرّات



والفقير لي وصفٌ ذات لازم أبداً كما الغنى أبداً وصف له ذاتي
وهذه الحال حال الخلق أجمعهم وكلهم عنده عبد له آتي

«سبحانك اللّهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك»

«وآخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين»

كتبه

علي محمد محمد الصلابي

غفر اللّه له ولوالديه ولجميع المسلمين

۞ ۞ ۞

المصادر والمراجع

١ ـ **السلطان عبد الحميد الثاني**، محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٢ ـ **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**، د. إسماعيل أحمد، مكتبة العبيكان، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

٣ ـ **مذكرات السلطان عبد الحميد**، تقديم: محمد حرب، دار القلم، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٤ ـ **في أصول التاريخ العثماني**، أحمد عبد الرحيم مصطفى، دار الشروق، الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

٥ ـ **البلاد العربية والدولة العثمانية**، ساطع الحصري، بيروت ١٩٦٠م.

٦ ـ **التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية**، إبراهيم حلمي بك.

٧ ـ **الفتوح الإسلامية عبر العصور**، د. عبد العزيز العمري، دار أشبيلية، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

٨ ـ **جمال الدين الأفغاني**، المصلح المفترى عليه، د. محسن عبد الحميد، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٩ ـ **واقعنا المعاصر**، محمد قطب، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مؤسسة المدينة المنورة.

١٠ ـ **تاريخ التربية التركية**، عثمان أركين.

١١ ـ **الانقلاب العثماني**، مصطفى طوران.

١٢ ـ **جريدة ترجمان حقيقة رسالة من الصين.**

١٣ ـ **صحوة الرجل المريض**، د. موفق بني مرجة، دار البيارق، الطبعة الثامنة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٤ ـ **حاضر العالم الإسلامي**، د. جميل المصري، جامعة المدينة المنورة.

١٥ ـ **تاريخ الدولة العثمانية**، د. علي حسون، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م.

١٦ ـ اليهود والدولة العثمانية، د. أحمد النعيمي، مؤسسة الرسالة، دار البشير، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

١٧ ـ يهود الدونمة، دراسة في الأصول والعقائد والمواقف، د. نوري النعيمي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

١٨ ـ السلطان عبد الحميد والخلافة الإسلامية، الجندي.

١٩ ـ الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، محمد مصطفى.

٢٠ ـ السلطان عبد الحميد حياته وأحداث عهده، محمد أورخان.

٢١ ـ العثمانيون في التاريخ والحضارة، د. محمد حرب، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٢ ـ مذكرات إبراهيم تيمو.

٢٣ ـ الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، د. عبد العزيز الشناوي، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، عام ١٩٨٠م.

٢٤ ـ العلمانية نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، سفر عبد الرحمن الحوالي، طبعة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

٢٥ ـ التاريخ العثماني في شعر أحمد شوقي، محمد أبو غدة، دار الرائد، كندا، الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

٢٦ ـ الشوقيات، ديوان أحمد شوقي، دار العودة، بيروت ١٩٨٦م.

٢٧ ـ المسألة الشرقية، دراسة وثائقية عن الخلافة العثمانية، محمود ثابت الشاذلي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م.

٢٨ ـ الاتجاهات الوطنية، محمد حسين، بيروت، ١٩٧٢م.

٢٩ ـ سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي، القاهرة.

٣٠ ـ دولة الموحدين، علي محمد الصَّلَّابي، دار البيارق، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.

٣١ ـ الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، تأليف: علي بن نجيب الزهراني، دار طيبة، مكة، دار آل عمّار.

٣٢ ـ صحيح البخاري، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، دار الفكر.

٣٣ ـ حركة الإصلاح في عصر السلطان محمود الثاني، د. البحراوي، دار التراث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م.

٣٤ ـ قراءة جديدة في تاريخ العثمانيين، د. زكريا سليمان بيومي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، عالم المعرفة.

٣٥ ـ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، دار فارس، بيروت.

٣٦ ـ الشرق الإسلامي في العصر الحديث، حسين مؤنس، مطبعة حجازي، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٣٨م.

٣٧ ـ صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٣٨ ـ المجتمع الإسلامي المعاصر، محمد المبارك، دار الفكر، بيروت، طبعة ١٣٩٠هـ/ ١٩٧١م.

٣٩ ـ في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق.

٤٠ ـ مفاهيم يجب أن تصحح، محمد قطب، دار الشروق، القاهرة، الطبعة السابعة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٤١ ـ سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر، مطبعة مصطفى الحلبي.

٤٢ ـ مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ابن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن القاسم.

٤٣ ـ مشكلات الجيل في ضوء الإسلام، محمد المجذوب، طبعة ١٣٩٠هـ.

٤٤ ـ التصوف في مصر إبّان العصر العثماني، د. توفيق الطويل، مطبعة الاعتماد، مصر طبعة ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.

٤٥ ـ الإسلام قوة الغد العالمية، باول شمتز.

٤٦ ـ رياضة الأسماع في أحكام الذكر والسماع للصيادي، محمد أبو الهدي الصيادي، مطبعة التمدن، مصر، ١٩٠٣م.

٤٧ ـ الأعلام، خير الدين الزركلي.

٤٨ ـ خطط الشام، محمد كردعلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٠هـ.

٤٩ ـ الموسوعة الميسرة في الأديان، ندوة الشباب العالمي، جدة.

٥٠ ـ عقيدة ختم النبوة، د. عثمان عبد المنعم، مكتبة الأزهر، ١٩٧٨م.

٥١ ـ عقيدة ختم النبوة المحمدية، د. أحمد حمدان، دار طيبة، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٥٢ ـ قادة الغرب يقولون، جلال العالم.

٥٣ ـ التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، محمد السيد محمد يوسف، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، دار السلام، القاهرة.

٥٤ ـ فقه التمكين في القرآن الكريم، علي محمد الصَّلَّابي، دار البيارق، عمان، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٨م.

٥٥ ـ ابن باديس حياته وآثاره، د. عمار الطالبي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٥٦ ـ البدر الطالع بمحاسن ما بعد القرن السابع، محمد بن علي الشوكاني، دار المعرفة، بيروت.

٥٧ ـ سدّ باب الاجتهاد وما ترتّب عليه، عبد الكريم الخطيب، دار الأصالة، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.

٥٨ ـ السنن الإلهية، د. عبد الكريم زيدان، دار الرسالة.

٥٩ ـ تفسير الألوسي المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين السيد محمد الألوسي البغدادي، طبعة مكتبة دار التراث، القاهرة.

٦٠ ـ تفسير الرازي، للإمام الفخر الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٦١ ـ تفسير القرطبي، لأبي عبد اللّه القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٨٧م.

٦٢ ـ رسالة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية.

٦٣ ـ المختار المصون من أعلام القرون، محمد بن حسن بن عقيل بن موسى، دار الأندلس الخضراء، جدة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

٦٤ ـ العالم العربي في التاريخ الحديث، د. إسماعيل ياغي، مكتبة العبيكان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

فهرس المحتويات

تنويه ٥

الإهداء ٧

مقدمة ٩

الفصل الأول: السلطان عبد الحميد ١٢٩٣ ـ ١٣٢٧هـ/ ١٨٧٦ ـ ١٩٠٩م ... ١٢

أولاً: زيارته إلى أوروبا مع عمه عبد العزيز ١٢

ثانياً: بيعته للخلافة وإعلان الدستور ١٤

ويقول السلطان عبد الحميد في هذا ١٥

ثالثاً: تمردات وثورات في البلقان ٢١

رابعاً: الحرب الروسية العثمانية ٢٣

يقول (بطرس الأكبر) في الفقرة التاسعة من وصيته ٢٣

● معاهدة سان ستيفانو ١٥ فبراير ١٨٧٨م (١٢٩٥هـ) ٢٦

يقول الإمبراطور الألماني «غليوم الثاني» في مذكراته ٢٧

● مؤتمر برلين (١٣٠٥هـ/ ١٨٨٧م) ٢٧

الفصل الثاني: الجامعة الإسلامية ٣٠

أولاً: جمال الدين الأفغاني والسلطان عبد الحميد ٣٣

ثانياً: الطرق الصوفية ٣٦

ثالثاً: تعريب الدولة ٣٨

يقول الأستاذ محمد قطب ٣٨

رابعاً: مراقبته للمدارس ونظرته للمرأة ومحاربته للسفور ٣٩

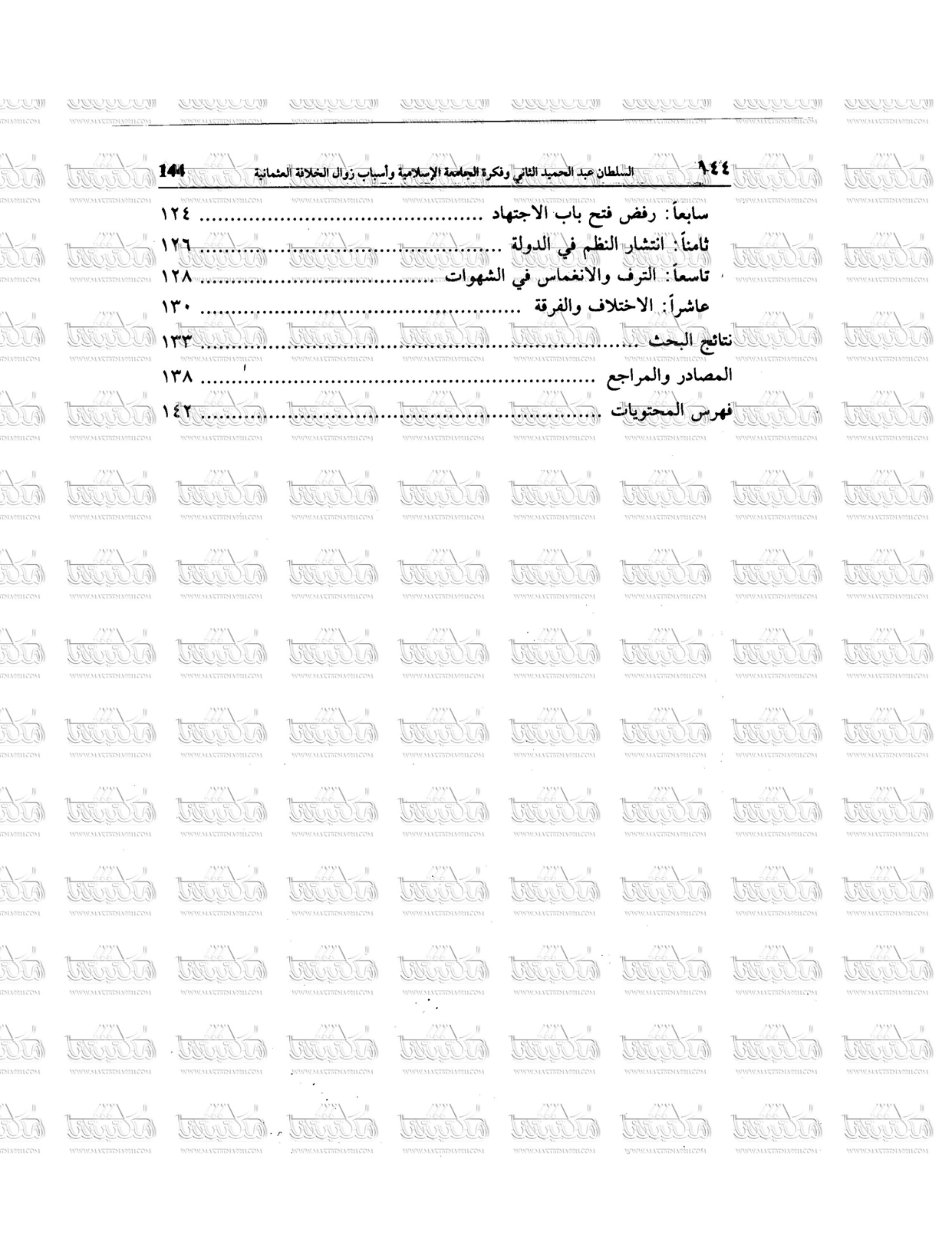
يقول هذا البيان ٤٠

خامساً: مدرسة العشائر ٤١

* وبرنامج مدرسة العشائر العربية، في استانبول كان كالآتي ٤٢

سادساً: خط سكة حديد الحجاز ٤٣

سابعاً: إبطاله مخططات الأعداء ٤٨
ثامناً: الأطماع الإيطالية في ليبيا ٤٩
* رسمت إيطاليا سياستها في ليبيا على ثلاث مراحل ٤٩
الفصل الثالث: السلطان عبد الحميد واليهود ٥٢
أولاً: يهود الدونمة ٥٣
ثانياً: السلطان عبد الحميد وزعيم اليهودية العالمية (هرتزل) ٥٧
* وفي هذا الصدد يقول عبد الحميد في مذكراته ٥٩
الفصل الرابع: السلطان عبد الحميد وجمعية الاتحاد والترقي ٦٤
الفصل الخامس: الإطاحة بحكم السلطان عبد الحميد الثاني ٧٠
تقول الجمعية في بياناتها إلى العثمانيين ٧١
استهدف أعداء الإسلام من تلك الحملات ٧٦
الفصل السادس: حكم الاتحاديين ونهاية الدولة العثمانية ٧٧
ويقول أسامة عيناي ٨٣
الفصل السابع: أسباب سقوط الدولة العثمانية ٩٠
● تمهيد ٩٠
أولاً: من لوازم الإيمان الصحيح الولاء والبراء ٩٢
يقول الأستاذ محمد قطب ٩٥
ثانياً: انحصار مفهوم العبادة ٩٨
ثالثاً: انتشار مظاهر الشرك والبدع والخرافات ١٠٤
انتشار البدع ١٠٨
انتشار الخرافات ١٠٨
رابعاً: الصوفية المنحرفة ١٠٩
خامساً: نشاط الفرق المنحرفة ١١٥
سادساً: غياب القيادة الربانية ١١٧
١ ـ الاهتمام بالمختصرات ١٢١
٢ ـ الشروح والحواشي والتقريرات ١٢٢
٣ ـ الإجازات ١٢٣
٤ ـ وراثة المنصب العلمي ١٢٣



سابعاً: رفض فتح باب الاجتهاد ١٢٤
ثامناً: انتشار النظم في الدولة ١٢٦
تاسعاً: الترف والانغماس في الشهوات ١٢٨
عاشراً: الاختلاف والفرقة ١٣٠
نتائج البحث ١٣٣
المصادر والمراجع ١٣٨
فهرس المحتويات ١٤٢